الأصنام (١)

الأستاذ: محسن الأسدي

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا البَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.[١]

إنَّ هذا المقطع القرآني الكريم، هو واحد من أدعية نبيِّ الله وخليله إبراهيم عليه السلام، ويُعدُّ فاصلاً بين الإيمان والكفر؛ بين التوحيد والشرك، بين من يتطلّع إلى ربِّه المنعم عليه، وبين من يتخذ لربّه أنداداً يتطلّع إليهم .. بين أمّة أبت إلاّ أن

---

١. سورة إبراهيم : ٣٥ ـ ٣٦ .

تعبد الله وحده، وبين أخرى أبت إلاّ أن تعبد أصناماً شتّى...

لقد جاء هذا الدعاء بعدما رأى إبراهيم عليه السلام كثرة الضالين في جيله، وبعدما علم كثرتهم أيضاً في أجيال عديدة مضت، وجميعهم ضلّوا بسبب عبادتهم لهذه الأصنام.. التي راح عليه السلام يخشى من أن تضلَّ بسببها أجيال في حياته، وأخرى آتية بعده، وفعلاً وقع هذا حتى انتهت عبادة الأصنام على يدي رسول الله محمدﷺ في فتح مكة؛ بعد أن بعثه الله تعالى بإسلام حرَّر العقول، بإبعادها عن الأضاليل، وتوجيهها نحو بارئها وحده، بعيداً عن صنم هنا ووثن هناك، تعبده بكلّ ذلّة وجهل وسفاهة، فأعاد للإنسان إنسانيته، وعرَّفه قدرَه وكرامتَه...

ولكن؛ لا عجب، فمع هذا التقدم الثقافي والعلمي الهائل، فقد عاد الشرك وما يستتبعه من الضلال بأشكال ومناهج أخرى، فما يدع الإنسان شيئاً خرافياً إلاّ في خرافة أشد، وما أن يخرج من بدعة إلاّ ويقع في أخرى، ولو تأملنا حياتنا المعاصرة، والأجيال القريبة التي خلت، لرأينا فيها من الخرافات والأوهام والأضاليل؛ ما لا يقلّ عن تلك الأوهام التي عاشتها قرون الأنبياء والرسل صلوات الله تعالى عليهم، وأدَّت بالناس إلى الشرك والضلال، ولكن برداء آخر، ولون آخر، وأسلوب مبتدع يثير الغرابة والسخرية... وليس هذا إلاّ لأنّ الأصنام وإن انتهت من عالمنا، لكن عوامل انتشارالعبادات والولاآت المنحرفة، وما تنتجه من الضلال ما زالت موجودة، وأهم تلك العوامل إبليس وذريته، لم يتوقف نشاطهم في إغواء الناس وإضلالهم، وإن اتسعت علومهم وتطورت دنياهم، فما زال تهديده لذرية آدم قائماً ﴿...لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.[1]

بأن يقودهم إلى المعاصي، وأعظمها الشرك، كما تُقاد الدابة بحنكها، إذا شدَّ

---

١. سورة الإسراء : ٦٢ .

فيها حبل تجرُّ به...، إلاّ من عصمهم الله وهم المخلصون.

هجرة مباركة!

فنبيُّ الله إبراهيم عليه السلام، الذي تحدى عبادة نمرود والأصنام، وكادوا يقتلونه حرقاً لولا إرادة السماء، هاجر وهو يحمل تراث ماض وواقع مرير يعيشه قومه، وعاشته القرون من قبل، مليءٍ بمظاهر عبادية سيئة؛ أدخلت الألم إلى قلبه، والحرقة على كيانه... دون أن ييأس أو يغيب عنه الأمل بأن يحقق معالم التوحيد الخالص ولو في أرض غير أرضه وفي قوم غير قومه!...

هاجر عليه السلام؛ ليترك بصماته المباركة في مكان بعيد عن قومه؛ هناك حيث الأرض الجرداء القاحلة؛ في وادٍ محاط بجبال صخرية قاسية؛ لا حياة فيه، ولا نمرود، ولا تعذيب ولا نار موقدة، ولا أصنام ولا أوثان تُعبد من دون الله تعالى، وكأنه بهذا أراد أن يبذر قيماً إيمانيّة ومبادئ توحيديّة لا صنم يُعبد فيه ولا وثن، ولا طاغية يُطاع فيه، ولا سفيه يُتبع.. في وادٍ بكر، وأرض تبدأ من الصفر، خالية من البشر السِّيء، والقلوب الملوّثة، وعبدة الجبت والطاغوت؛ يؤسس فيها قواعد الخير أولاً، ثمَّ يدعو الناس إليها..، فهذا هدفه الذي رسمه في نفسه؛ تحكيه لنا أدعيته المباركة التي لا تفارقه في خطواته المؤسسة لحياة صالحة وعباد صالحين:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۞ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾[1]

هناك في وادي مكة المبارك؛ الساحة الجديدة لمشروع السماء، الذي سيبدأ بتنفيذه..، وبذرته الأولى زوجته هاجر وابنه الرضيع إسماعيل؛ اللذان سيكون لهما دور كبير أيضاً في مشروع التوحيد، الذي قدّرته السماء أن يكون **﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي**

---

١. سورة الصافات : ٩٩ ـ ١٠٠.

زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ وتمهيداً لرفع قواعد البيت فيه: **﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾**، ليكون بلداً آمناً، منطلقاً للتوحيد، نواةً للخير، معطاءً للقيم، مثالاً رائعاً للعبادة الخالصة لله تعالى، مستعيناً بالدعاء لوادٍ أجدب، ولأرض جرداء قاسية جبالها مخيفة وديانها، ولكنها أرض انطلق منها أذان التوحيد، أذان الحج، فأحياها، فكانت بلداً طيباً آمناً بفضل دعاء إبراهيم **﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِناً﴾**، **﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً﴾**، وبأفئدة تهوي إليه؛ تعبد الله وحده؛ ويُبعد أهله عن الشرك، والرجس من الأوثان و...

وجاء هذا المشروع عبر كلمات صادقة؛ أعلنها خليل الله مرة واحدة عبر دعائه، ولعلّنا نرى غالب أدعية إبراهيم، حال التدبّر بها؛ أنّها لم تكن أدعية بلا مشروع، بل هي منهج دعوة وأسلوب هداية، فأدعيته يؤسس من خلالها مشاريع ضخمة وخالدة، أمرته السماء بها، وظلّت دِيناً للناس؛ عقيدة وشريعة لهم، هذا ما نجده واضحاً بنظرات في أدعيته، والتي منها:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيۤ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلاَةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُمْ مِّنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.[1]

ليبني جيلاً بل أجيالاً موحّدةً لله؛ شاكرةً المنعم الوهّاب؛ إنهم عباد الله الصالحون، أولئك الذين يذكرون الله كثيراً؛ فتلهج ألسنتهم بشكره أكثر!

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ

---

١. سورة إبراهيم : ٣٨ .

﴿ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.[١]

وهكذا تواصل دعاؤه وابنه إسماعيل لا فقط في بنائهما للبيت:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

بل وفي بناء حاضرهم وما هو آتٍ:

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وظلَّ خليلُ الله وابنه إسماعيل عليهما السلام يزداد كلٌّ منهما عنايةً واهتماماً بمشروع التوحيد هذا، وصار يشكل عندهما نعمةً كبرى، تدفعهما لا فقط إلى مزيد من شكر الله المنعم عليهما، بل إلى مزيد من الحرص على نعمة الهداية هذه في ذريتهما وفي الأجيال المتعاقبة بعدهما، حتى غدا هذا الهمُّ شغلهما الشاغل، فكانا يدعوان الله تعالى:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلعَزِيزُ ٱلحَكِيمُ﴾.[٢]

وكان رسول الله ﷺ وكانت بعثته المباركة، وكانت شريعته هي الاستجابة العظيمة لتلك الدعوة، وإن وقعت بعد قرون عديدة، لقد كانت وبلا شك دعوة استجيبت في أوانها، الذي قدّره الله تعالى بحكمته، غير أن الناس يستعجلون! وغير الواصلين يملون ويقنطون!

فراح ﷺ يتلو عليهم آيات الله، ويعلّمهم الكتاب والحكمة، ويطهّرهم من

---

١. سورة البقرة : ١٢٦ .

٢. سورة البقرة : ١٢٦ ـ ١٢٩ .

الأرجاس والأدناس. وبهذا لا فقط ليتمَّ ذلك المشروع الرباني ومعالمه؛ بل وليختم به الدين فلا نبوة بعده ولا نبيّ، بل إمامة عدل وصدق متمثلة بأئمة طاهرين من ذرية إبراهيم وإسماعيل، لا مكان فيها لظالم، ولا نصيب لمعتدٍ أثيم.

﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾.[1]

سيد قطب: ... إن إبراهيم وإسماعيل اللذين عهد الله إليهما رفع قواعد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والمصلين... إنهما يقولان باللسان الصريح:

﴿**رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾، ﴿**وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**﴾.

كما يقولان باللسان الصريح:

﴿**رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ...**﴾. و هما بهذا و ذاك يقرران وراثة الأمة المسلمة لإمامة إبراهيم، و وراثتها للبيت الحرام سواء. وإذن فهو بيتها الذي تتجه إليه، وهي أولى به من المشركين. وهو أولى بها من قبلة اليهود والمسيحيين!

وإذن فمن كان يربط ديانته بإبراهيم من اليهود والنصارى، ويدعي دعاواه العريضة في الهدى والجنة بسبب تلك الوراثة، ومن كان يربط نسبه بإسماعيل من قريش.. فليسمع:

إنّ إبراهيم حين طلب الوراثة لبنيه والإمامة، قال له ربُّه: ﴿**لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾، ولما أن دعا هو لأهل البلد بالرزق والبركة خصَّ بدعوته: ﴿**مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾، وحين قام هو وإسماعيل بأمر ربهما في بناء البيت وتطهيره كانت دعوتهما: أن يكونا مسلمين لله، وأن يجعل الله من ذريتهما أمة

---

١. سورة البقرة : ١٢٤ .

مسلمة، وأن يبعث في أهل بيته رسولاً منهم..

فاستجاب الله لهما، وأرسل من أهل البيت محمد بن عبد الله، وحقق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله، الوارثة لدين الله.[١]

وهكذا مضى خليل الله وابنُه، وبوحي من السماء وعهد في إرساء معالم الطهارة في بيت التوحيد، ومنزل العبادة الخالصة، فأمرته في آية بمشروع التطهير من كلِّ ما ينافي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

وفي آية أخرى عهدت له ولابنه إسماعيل ذلك:

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.[٢]

ثمَّ توّج هذا المشروع بالأذان المبارك:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

والهدف من فريضة الحجِّ: **﴿لِيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾**.

فكلّ هذا وغيره من أجل أن يكون بيته الطاهر، وبلده المبارك، جامعاً للموحّدين؛ مانعاً لآلهة متعددة؛ أصنام وأوثان، خالصاً لله وحده لا شريك له، فكان

---

١. انظر تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (ت ٥٤٦ هـ)؛ في ظلال القرآن: سورة البقرة : ١٢٦ـ ١٢٩ .

٢. سورة البقرة : ١٢٥ .

دعاؤه الخالد يردده، وتردده الأجيال المؤمنة معه:

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.[1]

تؤمن به القلوب؛ وتقرأه الشفاه قرآناً يُتلى أن يجنّبها عبادة الأصنام والأوثان بكلِّ أشكالها، فوجودها هو الضدُّ البيّن للأمان وللطهارة وللأذان ولذكر الله تعالى، ولجميع المبادئ المنافع والقيم...

فهل ـ فعلاً ـ ؟

بقي هذا البلد وكعبته المباركة وبيته الحرام كما أراده نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام، منارةً للتوحيد، بلا شرك يُتبع، وأصنام تُعبد، أم لا ؟

إذن لنرى فقرات هذا الدعاء، الذي استوقفني وأنا أقرأه، و استدعاني لأكتب شيئاً عنه في هذه المقالة، وسنرى ما سجلته الأصنام وعبادتها من إساءة لهذا البلد، وتلويث لطهارة بيته المبارك، وخطورة على عقيدة الناس وفكرهم وأخلاقهم؛ وما سببته من إضلال على نطاق واسع لهم، نصَّ عليه لا فقط دعاء إبراهيم:

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾.

بل ودعاء نبيِّ الله نوح عليه السلام من قبلُ، فهو نظيره في مقارعة الأصنام وفي شكواه منها ومن إضلالها:

﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً﴾.

فخطورة دور الأصنام كما تحدث عنه هذان النبيّان؛ نبيُّ الله إبراهيم ومن قبله نبيُّ الله نوح، وهما صادقان في بيانهما أنها أضلّت كثيراً، ظلّ تأثيرها هذا عبر

١. سورة إبراهيم : ٣٥ ـ ٣٦ .

تاريخها الطويل، ولم تسلم منه بقعةٌ، وإن طهرها الأنبياء والصالحون، بل لم تنجو منه حتى مكة بما فيها البيت الحرام ـ الذي طهره كلٌّ من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ـ وبقي قروناً تملأه الأصنام، والتي اتخذوا لها بيوتاً؛ راح عبّادها يطوفون بها مضاهاةً للكعبة والطواف بها، حتى يوم فتح مكة المكرمة حين دخلها رسول الله صلى الله عليه وآله فاتحاً، فتوجّه إلى المسجد الحرام، وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فحطّمها، وأزالها من حياة الناس إلى الأبد،كما يأتينا في فتح مكة، وبه حرّر رسول الله صلى الله عليه وآله الناس من ألوهيّة موهومة، عاثت فساداً في حياة الإنسان وسفّهت عقله، وأنقذ بذلك فكر الإنسان من تاريخ جاهلي طويل جداً دام قروناً كثيرة، وجعله على الوجه الأفضل، وأنهى ظاهرة عبادية منحرفة شوّهت معالم التوحيد، وأشاعت الجهل والتخلف والخرافة والوهم في الأمم، وبذلك شقّ طريق العلم والمعرفة، وكشف عن حقيقة الإيمان أن يبقى.

﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾.[1]

الخالص من كل شائبة وكدر، الخالص لله طاعةً وعبادةً...

* * *

لقد كان جميع ما يقدم للأصنام ودور عبادتها من قبل عبّادها؛ يقع بأيدٍ مستفيدة مستغلة أفهام الناس وممارساتهم، وبشكل يؤدي إلى تسلطهم؛ فالأموال والنذور والقرابين هو من نصيب الكهنة ورجال المعابد ومتعلقيهم .. إنهم كانوا نماذج سيئة،.. هؤلاء الذين كانت لهم سطوة على الناس، وكانوا موضع استشارة الملك،

---

١. سورة الزمر : ٣ .

ومقربي عرشه وسلطانه، يُزينون له ما يُريد، يمضون له ما يفعل؛ لهذا كان الناسُ يهابونهم، ويخشون غضبهم، يقدمون لهم ما يشاؤون، يرجون رضاهم...

و راح الكثير أيضاً يعبدُ الملكَ الذي هو مالك الأرض ومَن عليها؛ كالنمرود بن كنعان ومَن هم على شاكلته وليسوا قليلاً في التاريخ، طغى وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا، فكانوا يخشون سطوته فلم يعصوه، خافوا أن يقتلهم ويسجنهم ويعذبهم فعبدوه؛ لعلّه يرضى، ويكفّ عذابه وظلمه وأذاه لهم، وخافوا أخذه لمحاصيلهم وأموالهم، فأطاعوه...، هكذا كان هناك واقع تاريخي مرير، عالم يعبد الأوثان عاشه إبراهيم، وكان سبباً لارتحاله وهجرته وابتعاده عن أور الكلدانيين الوثنية، باحثاً عن أرض أخرى وموطن جديد، يدعو فيه لعبادة الله الحقيقي، وقلبه واثق: ﴿**إِنَّ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾.

فذاك واقع سيّءٌ وقبيح عاشه نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام، يتذكره وهو بعيدٌ عن قومه وما يعبدون، تلاحقه تلك الظاهرة الخطيرة بأوثانها وأصنامها وذكرياتها المؤلمة، وبكثرة من ضلّوا بسببها وافتتنوا بها؛ وهم خلق كثير قبله وفي عصره، وهو إلى جوار بيت الله الحرام الذي رفع قواعده متمنياً داعياً الله تعالى:

﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.[1]

الإعراب:

﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً**﴾.

إذ ظرف زمان لما مضى متعلق باذكر، وجملة قال مضاف إليها الظرف

---

١. سورة إبراهيم : ٣٥ ـ ٣٦ .

وابراهيم فاعل، ورب منادى محذوف منه حرف النداء مضاف الى ياء المتكلم المحذوفة، واجعل فعل دعاء وفاعله مستتر تقديره أنت، وهذا مفعوله الأول، والبلد بدل من اسم الاشارة، وآمناً مفعول به ثان.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾.

واجنبني فعل دعاء والنون للوقاية والياء مفعوله، وبني عطف على الياء أو مفعول معه، وأن نعبد: أنْ وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، كما قال الراغب أي عن أن نعبد. والجار والمجرور متعلقان بـ واجنبني، والأصنام مفعول به لنعبد.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾

رب منادى محذوف منه حرف النداء، وإن واسمها، وجملة أضللن خبر إن، والضمير يعود على الأصنام، والمراد بالدعاء طلب الثبات والدوام على ذلك وكثيراً مفعول به ومن الناس صفة لكثيراً، وجملة إنهن تعليلية لقوله واجنبني.

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، الفاء عاطفة ومن اسم شرط جازم مبتدأ وتبعني فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والنون للوقاية والياء مفعول به فإنه الفاء رابطة لجواب الشرط وإن واسمها ومنيّ خبرها والجملة في محلّ جزم جواب الشرط والفعل وجوابه خبر من.

﴿وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ جملة معطوفة على نظيرتها.[1]

---

١ . إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش : الآيات .

اللغة: أَضْلَلْنَ:

ضَلَّ يضلّ، وهو مأخوذ من مادّة (ض ل ل)... اَضَلَّهُ : جعله يَضِلُّ، أضلَّ يُضلّ.. وأضَلَّ الشيءُ فلاناً: ضَلَّهُ .. وضَلَّ سَوَاءَ السَّبيلِ: اِنْحَرَفَ عَنِ الطَّرِيقِ السَّوِيّ، أضلَّ الشَّخصَ: جعله لا يهتدي لطريق الحقّ، عكس أرشده .. الضَّلال والضَّلالة: ضدّ الهدى والرشاد.. وسلوك طريق لا يُوصل إلى المطلوب...

الرّاغب: ضلَّ: الضّلال: العدول عن الطّريق المستقيم، ويضادّه الهداية، ويقال الضّلال لكلّ عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً يسيراً كان أو كثيراً...

ابن منظور: الضّلال والضّلالة: ضدّ الهدى والرّشاد، أي جار عن دين أو حقّ أو طريق.

ويقال: أضللت فلاناً إذا وجّهته للضّلال عن الطريق؛ وإياه أراد لبيد:

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال، ومن شاء أضل

وحتى الضلال اصطلاحاً، لا يختلف عنه لغةً فما ذكره الراغب هو نفسه اصطلاحاً:

الضّلال: هو العدول عن الطريق المستقيم..

وقال الجرجانيّ: الضّلال فقد ما يوصّل إلى المطلوب، وقيل : سلوك طريق لا يوصّل إلى المطلوب.

ولعلَّ هذه اللفظة ومشتقاتها وردت في القرآن الكريم: ١٩١ مرةً، منها مفردة الإضلال فقد جاء كثيراً في التنزيل العزيز؛ ومنه ما نسب إلى بعض المُضلّين كالسامري في الآية:

﴿**وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ**﴾.[١]

---

١. طه : ٨٥ .

وما نسب إلى فرعون كما في الآية:

﴿**وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدىٰ**﴾.[١]

وقد كان ما صدر منهما إضلالاً حقيقةً لا مجازاً.

أما هنا في آيتنا: ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ**﴾. والتي جاءت تعليلاً لدعاء إبراهيم لربِّه: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾، وإخباراً منه: ﴿**إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ**﴾، فقد وقع كلام فيأن هذه الأصنام، طبيعتها جماد، فكيف توصف بالإضلال للآخر؟!

لقد نسب الإضلال وأسند إلى الأصنام؛ لكونها سبباً لما أصابهم من ضلال حتى عبدوها؛ فكأنها أضلَّتهم. وإلاّ فهي جمادات لا تعقل ولا تفعل.. وقد ذكر في مفردات الراغب: أنَّ كلَّ شيء يكون سبباً في وقوع فعل، صحَّ نسبة ذلك الفعل إليه. وبما أنَّ الأصنام سببٌ في ضلالهم، صحَّ نسبته إليها، كما تقول: فتنتهم الدنيا أي: افتتنوا بها، واغتروا بسببها...

يقول الشيخ الطبرسي: معناه ضلَّ بسببهن وعبادتهن كثير من الناس؛ كما يقال: فتنتني فلانة يعني افتتنتُ بحبها لا لأنها عملت شيئاً وكما في قول الشاعر:

هَبُونِي امرأً مِنْكُمْ اَضَلَّ بَعيرهُ ... لَـه ذِمَّـةٌ إنَّ الذِمـامَ كَبـيرُ

وإنما أراد ضلَّ بعيره؛ لأنَّ أحداً لا يضلُّ بعيره قاصداً إلى إضلاله.

ابن منظور: وقوله في التنزيل العزيز: ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ**﴾، أي ضلّوا بسببها؛ لأنَّ الأصنام لا تفعل شيئاً ولا تعقل، وهذا كما تقول: قد أفتنتني هذه الدارُ أي افتتنتُ بسببها وأحببتُها.

وقول أبي ذؤيب:

---

١ . طه : ٧٩ .

رآها الفؤادُ فاستُضِلَّ ضلالُه نيافاً من البيض الكرام العطابل

قال السكري: طُلب منه أن يَضِلَّ فضَلَّ كما يقال: جُنَّ جُنونُه..

الآلوسي: أي تسببن له في الضلال فإسناد الإضلال إليهن مجازي؛ لأنهن جماد لا يعقل منهن ذلك، والمضل في الحقيقة هو الله تعالى، وهذا تعليل لدعائه عليه السلام السابق، وصدر بالنداء إظهاراً للاعتناء به ورغبة في استجابته!

وبلاغيًّا هناك مجاز عقلي في إسناد الإضلال للأصنام وهي جمادات، أو مجاز مرسل؛ والعلاقة هي السببية؛ لأنها سبب الإضلال.

هذا ونسب السمرقندي (ت ٣٧٥ هـ) في تفسيره بحر العلوم قولاً لبعضهم دون أن يذكر من: كان الإضلال منهن؛ لأن الشياطين كانت تدخل أجواف الأصنام وتتكلم فذلك الإضلال منهن.

اجْنُبْنِي: أبعِدني، و نحّني، أي أبعدني واجعلني في جانب بعيد والأصنام في جانب.

يقال: جنبت الشيء أجنبه جنوباً، ومن العرب من يقول: أجنبته أجنبه أي تجنبته، وكأن معنى قوله: ﴿**وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾: اصرفني وإياهم عن عبادة الأصنام، ومعنى اجنبني اجعلني كالجنيب عن ذلك. وامنعني، يقال: جنبه كذا وجنبه وأجنبه: إذا منعه من الأمر وحماه منه.

يقول السمين الحلبي:

قوله: ﴿**وَٱجْنُبْنِى**﴾، يُقال: جَنَبَه شرًّا، وأَجْنَبَه إياه، ثلاثياً، ورباعياً، وهي لغةُ نجدٍ، وجَنَّبه إياه مشدداً، وهي لغةُ الحجازِ، وهو المَنْعُ، وأصلُه مِنَ الجانب.

وقال الراغب: ﴿**وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ**﴾،[1]

---

١. سورة إبراهيم : ٣٥ .

من جنبته عن كذا أي: أبعدته، وقيل: هو من جنبت الفرس، كأنما سأله أن يقوده عن جانب الشرك بألطاف منه وأسباب خفيّة. والتجنيب: الرّوح في الرّجلين، وذلك إبعاد إحدى الرجلين عن الأخرى خلقة.

أمر من الثلاثي المجرد، يقال: جنبه الشيء، إذا جعله جانباً عنه، أي باعده عنه، وهي لغة أهل نجد. وأهلُ الحجاز يقولون: جنبه بالتضعيف أو أجنبه بالهمز. وجاء القرآن هنا بلغة أهل نجد لأنها أخف.

الشيخ الطوسي: وقوله: ﴿**وَٱجْنُبْنِى**﴾، أي اصرفني عنه، جنبته أو جنبه، جنباً وجنبته الشر تجنيباً، واجنبته اجتناباً، قال الشاعر:

وتنقض عهده شفقاً عليه وتجنبه قلايصنا الصعابا

وقال ابن الجوزي: ﴿**وَٱجْنُبْنِى وَ بَنىَّ**﴾، أي: جنِّبني وإياهم، والمعنى: ثبِّتني على اجتناب عبادتها..

القراءة:

وقرأ الجحدريُّ وعيسى الثقفي ﴿**وَٱجْنُبْنِى**﴾، بقطعِ الهمزة مِنْ أجْنَبَ.

وقد ذكر الشيخ الطبرسي: في الشواذ قراءة الجحدري والثقفي وأبي الجحجاح: واجنبني بقطع الهمزة.

وأنث الأصنام؛ لأنه جمع ما لا يعقل؛ يخبر عنه أخبار المؤنث كما تقول: الأجذاع انكسرت...[1]

---

١. انظر في هذا مفردات الراغب؛ ولسان العرب؛ والدّر المصون؛ والبحر المحيط؛ وروح المعاني؛ ومجمع البيان؛ و المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية؛ وإعراب القرآن، لمحي الدين الدرويش؛ وتفسير زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي.

المناسبة:

إنّ مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما من المقطع القرآني الكريم، ولعلَّ بدايته من الآية ٢٨ حين ذكر الله تعالى التعجيب من الذين بدّلوا نعمة الله كفراً: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ۞ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ**﴾.

ولم يكتفوا بالتبديل، بل أردفوه بأن جعلوا لله أنداداً: ﴿**وَجَعَلُواْ لِلهِ أَندَاداً**﴾، وهدفهم ﴿**لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ**﴾، فكان مصيرهم في الحالتين ونهايتهم وعقوبتهم: ﴿**جَهَنَّمَ**﴾، ﴿**جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ**﴾. ﴿**قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ**﴾.

إنَّهم قريش ومن تابعهم من العرب الذين اتخذوا آلهة من دون الله.

وبعد أن ذكر الله تعالى نعمه التي لا تحصى، وكان من نعم الله عليهم إسكانه إياهم حرمه، أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم، وأنه صلوات الله عليه دعا الله تعالى أن يجعل مكة آمنة، ودعا بأنْ يجنب بنيه عبادة الأصنام، وأنه أسكنه وذريته في بيته ليعبدوه وحده بالعبادة التي هي أشرف العبادة وهي الصلاة، لينظروا في دين أبيهم، وأنه مخالف لما ارتكبوه من عبادة الأصنام، فيزدجروا ويرجعوا عنها.[1]

ابن عاشور: عطف على جملة: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللهِ كُفْراً**﴾.[2]

فإنهم كما بدّلوا نعمة الله كفراً أهملوا الشكر على ما بوأهم الله من النعم بإجابة دعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام، وبدلوا اقتداءهم بسلفهم الصالح اقتداءً بأسلافهم من أهل الضلالة، وبدلوا دُعاء سلفهم الصالح لهم بالإنعام عليهم كفراً بمفيض تلك النّعَم.

---

١. انظر البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ)، الآية. بتصرف .

٢. سورة إبراهيم : ٢٨ .

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة: ﴿**اَللهُ الَّـذِى خَلَـقَ السَّـمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾، بأن انتقل من ذكر النعم العامة للناس التي يدخل تحت مِنتها أهل مكة بحكم العموم إلى ذكر النعم التي خصَّ الله بها أهل مكـة. وغـير الأسـلوب في الامتنـان بهـا إلى أسلوب الحكاية عن إبراهيم لإدماج التنويه بإبراهيم عليه السلام والتعريض بذريته من المشركين.

ويبدو في دعوة إبراهيم الثانية: ﴿**وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ**﴾.

تسليم إبراهيم المطلق إلى ربّه، والتجاؤه إليه في أخصّ مشـاعر قلبـه. فهـو يدعوه أن يجنبه عبادة الأصنام هو وبنيه، يستعينه بهذا الدعاء ويسـتهديه. ثم ليـبرز أن هذه نعمة أخرى من نعم الله. وإنها لنعمة أن يخرج القلب مـن ظلمـات الشـرك وجهالاته إلى نور الإيمان بـالله وتوحيـده. فيخـرج مـن التيـه والحـيرة والضـلال والشرود، إلى المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء. ويخرج من الدينونة المذلة لشتى الأرباب، إلى الدينونة الكريمة العزيزة لرب العباد.. إنها لنعمـة يـدعو إبـراهيم ربـه ليحفظها عليه، فيجنبه هو وبنيه أن يعبد الأصنام.

يدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصـنام من الناس في جيله وفي الأجيال التي قبله، ومن فتنوا بها ومن افتتنـوا وهـم خلـق كثير:

﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ**﴾.

ابن عاشور: وإعادة النداء في قوله: ﴿**رَبِّ إِنَّهُـنَّ أَضْـلَلْنَ كَثِـيراً مِـنَ النَّـاسِ**﴾، لإنشاء التحسر على ذلك.

وهي تعليل للدعوة بإجنابه عبادتها بأنها ضلال راج بين كثير مـن النـاس، فحق للمؤمن الضنين بإيمانه أن يخشى أن تجترفـه فتنتـها، فافتتـاح الجملـة بحـرف

التوكيد لما يفيده حرف (إنّ) في هذا المقام من معنى التعليل..[١]

من التفسير:

أي واذكر ـ والخطاب لرسول الله محمدﷺ ـ ﴿**إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ**﴾، والإشارة إلى مكة شرّفها الله تعالى. فلعّله بعد بنائه للكعبة، رفع يديه المباركتين بهذا الدعاء؛ رب اجعل «مكة» بلدَ أمنٍ يأمن كل مَن فيها، وأبعِدني وأبنائي عن عبادة الأصنام.. ويبقى هذا الدعاء حيًّا فاعلاً تتلقاه الأجيال المؤمنة الموحدة، وإن آل البلد إلى قريش، فكفرت فيه بالله، وجعلت له أنداداً، وظلمت وتجبرت، وأساءت لأمنه وقدسيته..

فبداية الآية قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِناً**﴾. وفي الآية ١٢٦ من سورة البقرة: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً ءَامِناً**﴾، وكلّ من الدعاءين جاءا لمكّة المكرّمة، فأي فرق بينهما؟

الزمخشري: قد سأل في الأوّل أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمناً.

وتبعه الرازي في الجواب نفسه.

البيضاوي: إن المسؤول في الأول إزالة الخوف عنه وتصييره آمناً، وفي الثاني جعله من البلاد الآمنة.[٢]

يقول السيد الطباطبائي: وقد حكى الله سبحانه نظير هذا الدعاء على

---

١. انظر التحرير والتنوير؛ وفي ظلال القرآن، لسيد قطب : الآية .

٢. انظر الكشاف؛ ومفاتيح الغيب؛ وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: الآية .

اختصار فيه عن إبراهيم عليه السلام في موضع آخر بقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهَ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.[1]

ومن الممكن أن يستفاد من اختلاف المحكيّين في التعبير أعني قوله: **﴿اِجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾**، وقوله: **﴿اِجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾**، أنهما دعاءان دعى عليه السلام بهما في زمانين مختلفين، وأنه بعد ما أسكن إسماعيل وأُمّه أرض مكة ورجع إلى أرض فلسطين ثم عاد إليهما، وجد من إقبال جرهم إلى مجاورتهما مكاناً ما سرّ بذلك، فدعا عند ذلك مشيراً إلى مكانهم: **﴿اِجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾**، فسأل ربَّه أن يجعل المكان بلداً ولم يكن به، وأن يرزق أهله المؤمنين من الثمرات، ثم لما عاد إليهم بعد ذلك بزمان وجد المكان بلداً فسأل ربَّه أن يجعل البلد آمناً.

ومما يؤيّد كونهما دعاءين ما فيهما من الاختلاف من غير هذه الجهة ففي آية البقرة الدعاء لأهل البلد بالرزق من الثمرات، وفي الآيات المبحوث عنها الدعاء بذلك لذريته خاصة مع أموراُخرى دعا بها لهم.

وعلى هذا يكون هذا الدعاء المحكي عن إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات آخر ما أورده الله تعالى في كتابه من كلام إبراهيم عليه السلام ودعائه، وقد دعا به بعدما أسكن إسماعيل وأُمه بها وجاورتهما قبيلة جرهم وبنى البيت الحرام وبنيت بلدة مكة بأيدي القاطنين هناك كما تدل عليه فقرات الآيات.[2]

---

١. سورة البقرة: ١٢٦ .

٢. انظر تفسير الميزان : الآيات .

وقفة:

وقد يزداد الإنسان المؤمن عجباً ودهشةً لنبيٍّ أطاح بالأصنام، واقتلعها من أصلها، كيف يخافها، ويحذر منها، فيدعو الله تعالى أن يُجنبه وبنيه عبادتها؛ أو يجنبه وإياهم عن الاشتغال بجثة متخذة من فضة، أو نحاس، أو خشب، يعبدونها لذاتها أو متقربين بها إلى الله تعالى، وفي الحالتين تصرفهم عن عبادته تعالى...

فمن المعلوم أن إبراهيم مع تحققه بمعرفة الله تعالى، واطلاعه على حكمته لم يكن ممن يخاف عبادة تلك الجثث التي كانوا يعبدونها، فكأنه قال: اجنبني عن الاشتغال بما يصرفني عنك يا ربّ، أو ثبِّتني وبنيَّ على اجتناب عبادتها!

﴿**وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ**﴾.

وسواء أكان خوفه من عبادتها بعد أن رأى جاذبية النفوس لها، وتأثيرها الكبير عليهم، أم خوف الاشتغال بما يصرفه عن الله تعالى، إلاّ أنه ـ وبلا شك ـ كان محقّاً في موقفه، وفي دعائه وفي جهاده لها ولأجل إزالتها من حياة الناس؛ حذراً أن يعودوا لعبادتها، ولعلنا نوجز الموجب لموقفه وتحذيره الشديد بل ولخوفه منها على نفسه وعلى الناس هو:

أولاً:

أنَّ عبادتها معناها الشرك بالله؛ والشرك وإن تعددت أنواعه وأشكاله، فهو وضع العبادة في غيرموضعها، وأداؤها لغير مستحقها، وتقديمها بين يدي من هو غير جدير بها، مهما كان، وأي كان؛ وإن علا شأنه وعظم غناه، وقويت شوكته وسلطانه، فكيف إذا كانت تؤدى لأصنام نُحتت بالأيدي؟! وهو الضلال الأخطر من كلِّ تهديد للإنسان وعقله، والأقبح من كلِّ منكر، وهو كما وصفته الآية: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ**

لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.[١]

والأنبياء يعرفون ذلك جيداً؛ ويعرفون أنها وعبادتها تؤدي إلى الشرك الذي ليس لصاحبه إلاّ أن يكون قد ﴿**ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً**﴾، وبالتالي ليس له أي نصيب من المغفرة، فإنَّ ما دون الشرك وإن عظم جرمه أهون عند الله من الشرك: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً**﴾.[٢]

ثانياً:

لأَنَّهُنَّ ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾.

حين افتتن الكثير الكثير من الناس بحبّها، وبجعلها نظيراً مساوياً لله تعالى وهذا معنى الند ويأتي بمعنى الضد أيضاً. وراحوا يمنحونها حبَّهم أو حبَّ عبادتها أو حبَّ التقرب إليها والانقياد لها إلى درجة تساوي أو تشارك حبَّ الله تعالى وعبادته والتقرب إليه، يساوون بينهما في المحبة، كما في آيات قرآنيّة عديدة، منها:

﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً للهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً وَأَنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ**﴾.[٣]

﴿**تَٱللهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ**﴾.[٤]

هذا اعتراف منهم وهم في النار يخاصم بعضهم بعضاً أي إنا كنا في ضلال عن

---

١. سورة لقمان : ١٣ .

٢. سورة النساء : ١١٦ .

٣. سورة البقرة : ١٦٥ .

٤. سورة الشعراء ٩٧ ـ ٩٨.

الحق بيّن، وذهاب عن الصواب ظاهر، إذ سوّيناكم بـالله وعـدلناكم بـه في توجيـه العبادة إليكم!

وهذا مناط الشرك حيث اعتقادهم المساواة بين الله جلَّ جلاله ومعبـوداتهم، سواء كان ذلك في أفعاله، أو صفاته أو في اعتقاد أن غيره يستحق العبادة سـبحانه.. إنَّه لذنب عظيم بل هو الذنب الأعظم، كما نسب إلى رسـول اللهﷺ لمـا سـئل أي الذنب أعظم؟!

فقالﷺ: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»!

حتى وصل بهم الحال إلى عبادتها، بل والتفاني بالأموال والأنفس من أجلها، ومن أجل ما تمنحه العلاقة بها من سلطنة ومكانة اجتماعية، تجعل لهم وجاهةً وعزّاً كما تصور لهم أوهامهم وأهواؤهم.، وحتى يرسخوا هذا كله راحوا يستفيدون مـن تجهيل الناس، وإبعادهم عن المعرفة، التي إن اتصفوا بهـا، فـلا تتحقـق للمتسـلطين المشركين آمالهم وأهدافهم السيئة...

﴿**وَاتَّـخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِـيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً**﴾...[1]

﴿**عِـزّاً**﴾ في دنياهم يطلبون عنـدها العـزّة، حـين يتعـززون بهـا في النصـرة والمنفعة، ويستنصرونها. وأيضاً في آخرتهم حين يرجون منها الإنقاذ من العذاب؛ بأن يكونوا شفعاء لهم في الآخرة...

ولكن ليس الأمـر كمـا زعمـوا، ولا يكـون مـا طمعـوا: ﴿**كَـلاَّ سَـيَكْفُرُونَ بِعِبَـادَتِهِمْ**﴾، أي يوم القيامة: ﴿**وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً**﴾، أي بخلاف ما ظنـوا فـيهم، تكون هذه الأصنام أعواناً عليهم في القيامـة، يكـذِّبونهم ويلعنـونهم. هكـذا يتـبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضًا ومصيرهم جميعًا النار، وليس لهم ناصر يمنعهم

---

١. سورة مريم : ٨٢ .

من دخولها.

وحقًّا ما قاله إبراهيم عليه السلام:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ ٱللهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾.[1]

فهل هناك أضلُّ من هؤلاء، ومن الذين اتبعوهم؛ وهم مشركو قريش حين قاوموا رسالة السماء، وتمسّكوا بأحجارهم حتى رأوا أنَّ وجودهم من وجودها، ومصالحهم من بقائها، فاستبسلوا دفاعاً عنها، وخاضوا معارك عديدة ضدَّ رسول الله صلى الله عليه وآله ومشروعه ودعوته إلى الله تعالى..

وهكذا مقاومة القرى والأقوام والأُمم الماضية لأنبيائها ورسله وكتبه...؟!

لهذا راح نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام يلوذ بالله تعالى، وكذا جميع أنبياء الله وأصفيائه وأحبائه والصالحين؛ لوقايتهم منها ومن أنواع الشرك وأشكاله، وصاروا عليهم السلام يحذرون من هذه الظاهرة، ويعتنون بتبليغ الناس وتعريفهم بآثارها على حياتهم حتى وإن آمنوا؛ والتي قد توقع بكلّ ما بنوه من خير... فنجده وإخوانه الرسل والأنبياء من قبله ومن بعده قد اجتهدوا وضحّوا من أجل انتشال أنفسهم وأهليهم وقومهم وأممهم من هذا الداء الخطير، والبلاء المبرم في عالم الإنسان، ومما يحدثه من آثارأخروية وخيمة، وأخرى دنيوية؛ نفسية وأخلاقية واجتماعية على الفرد والمجتمع!

ثالثاً:

حرص إبراهيم عليه السلام الكبير على أن لا فقط ينجو أبناؤه من هذه

---

١. سورة العنكبوت : ٢٥ .

الظاهرة المنحرفة وآثارها، بل ليغدوا أئمةً للأمم في إيمانهم الصادق لله تعالى وحـده، ودعاةً صالحين للأجيال في الدعوة إلى الله تعالى والتسليم له، ونبذ كل ظـاهرة بـل شائبة شرك تطرأ على حياتهم والناس بسبب هذه التماثيل التي عكفت عليها نفوس كثيرة ولاءً وعبادةً وتقديساً.. وقد عرف عنه عليه السلام أنّه ما من خير ومـا مـن مشروع تطرحه السماء، إلاّ ونجده يتمنّـاه لذريتـه وأبنائـه، كمـا في: ﴿**إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّالِمِينَ**﴾،[١]

وكذا في: ﴿**رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ**﴾.[٢]

فكان يسرّهُ أن يرى ذلك فيمن ينتسب إليه من ذريّة وأبناء...

أو كأنه ـ والله العالم ـ يستحضر تلك المعصية التي وقع فيها ابن نوح من قبل، حينما عصى أمر ربِّه، وعقَّ أباه وهو يدعوه...: ﴿**يَابُنَىَّ ٱرْكَبَ مَّعَنَـا وَلاَ تَكُـن مَّـعَ ٱلْكَافِرِينَ**﴾.[٣]

ويأتيه جوابه وهو مملوء بغروره؛ غير مبالٍ لا بلهفة أبيه وحرصه عليه فقط، بل بأمر الله تعالى وقضائه: ﴿**... فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ**﴾.[٤]

فلا يريد هذا المشهد؛ معصية الله تعالى، يتكـرر لبنيـه وذريتـه، فيخلـدوا في المعصية والضلال المبين؛ كما خلد ابنُ نوح من قبلُ.

وحرصه هذا مع الناس كافة حيث يتجلّى في جميع مشـاريعه، فلـم يتـركهم فيما أسسه من أعمال وفي أذانه الحيّ للحج، و في أدعيته: ﴿**رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَ لِوَالِـدَىَّ**

---

١. سورة البقرة : ١٢٤ .

٢. سورة إبراهيم : ٣٧ .

٣. سورة هود : ٤٢ .

٤. سورة هود ٤٢ – ٤٣ .

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.[١]

وفعلاً ظهر من ذريته أنبياء ورسل وأئمة حملوا رسالات السماء، وبعثوا إلى أمم يهدون ويدعون ويرشدون، ويبلغون...

رابعاً:

ولعلَّنا بهذا الدعاء الخالد نعرف خطورة الأصنام، وتحذيره منها، حينما نعرف أنَّ هذه الظاهرة استوعبت حياة البشرية ومفاصلها، وغدا الولاء لها ديناً؛ خاصة إذا عرفنا كيف اخترقت النفوس، وكيف اتسعت وتجذرت في المجتمعات، حتى كاد من الصعوبة إزالتها، وخير دليل على مخاطرها على نفس الإنسان وعلاقته بربّه هو عناية السماء واهتمامها بقلعها من القلوب والنفوس عبر إرسال آلاف الرسل والأنبياء والكتب والشرائع، وقد واجهوا من أقوامهم مقاومة عنيفة، واتهامات كثيرة، وإعراضاً واستكباراً وتمرّداً دفاعاً عنها وعن عبادتها...

وربّ قائل يقول: لقد وقع هذا الشرك في تلك القرون الغابرة، وعبدت الأصنام، لكنّها مضت وانتهت وقُضي عليها، لا؛ أبداً، فإن انتهت عبادة الحجر، فقد استبدلت بعبادات أُخرى؛ سواء أكانت سلطاناً ومالاً أم بشراً وهوًى، أو أفكاراً ومناهج وظواهر ضجّت بها ساحات التاريخ، وامتلأت بها أجواؤنا.. حقًّا: ﴿**إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ**﴾.

وبالتالي فيبقى هذا الدعاء بفقراته حيًّا خالداً فاعلاً مؤثراً موعِظاً للمؤمن في كلّ مراحل حياته.. ويسجل أهميةً عظيمةً في حياة الإنسان الموحّد، وانذاراً خطيراً، وتحذيراً من الضلال وأسبابه، وبالتالي لا ينبغي الاكتفاء بقراءته دون الوقوف عنده،

---

١. سورة إبراهيم : ٣٨ .

والتدبر فيه، وسبر أغواره، ومعرفة أسبابه وأهدافه وثماره المباركة، خاصة الأصنام وما شكّلته في حياة الإنسان، وما تركته في تاريخه وعقائده وأخلاقه من تجاوز وإساءة لعلاقته بالله تعالى.. لهذا كان اختياري لهذا الكلم الطيب من أدعية هذا النبيّ الكبير صلى الله عليه وآله، وما أكثرها وأعظمها من أدعية.. وبالذات للأصنام وإضلالها!

هكذا عُبدت الأصنام!

إذا اطلعنا على بداية هذه الأصنام والأوثان في التاريخ، وعوامل انتشارها وعبادتها، عرفنا كيف كُرّس الضلال بين الناس، وكيف انتشر بين الأُمم، وعرفنا أهمية قول إبراهيم عليه السلام، وتشخيصه لها ولما تفرزه في الساحة من الهلاك لأبنائها، ولما تتركه من آثار سيئة على عقائد الناس وعقولهم وأخلاقهم، وإفساد لعقيدة التوحيد، وتحريف لها، وقد اختصرها كلٌّ من دعاء إبراهيم عليه السلام:

﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ**﴾.

وقول نوح عليه السلام من قبلُ:

﴿**وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً**﴾.

فمنذ القدم؛ عرفت البشرية الأصنام، التي لعبت عبادتُها هذا الدور الخطير في دنيا الناس، في زمن نوح عليه السلام، بل وقبله كما في بعض الأخبار، وبقراءة المصادر والأخبار، يتضح لنا أكثر من سبب لنشوء هذه الظاهرة في تاريخ الناس، منها:

إنَّ الأصنام تُعدُّ من أخطر ما فعله إبليس للإنسان، ولبّسه عليه؛ ومن أقبح مكائده ووساوسه حيث استطاع أن يُغري الناس ويوسوس لهم حتى يشركوا بالله سبحانه وتعالى. وليس الأمر بعيداً عليه، وقد قَالَ: ﴿**فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن**

﴿شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.[١]

كما أنَّ النفس البشرية الأمّارة بالسوء واتباع الهوى، لا تقلُّ دوراً سيئاً عن دور إبليس..

وعامل الجهل الغالب على الناس، وهكذا استغلال الآخر القوي لهم، وأفعال سلاطين الجور وأعوانهم في تجهيل الرعيّة؛ ليسهل انقيادها.. والتنافس والتفاخر بين القبائل والزعماء وحتى البيوت، وطموح كلّ منهم إلى صنم مستقل، بعيداً عن التبعيّة للآخر..

ولا ننسى النزعة الحسيّة المتفشية في الإنسان، والمتمثلة بميله إلى إله محسوس ملموس يتمسح به، لرمز يمثل حضور الإله يخاطبه ويناجيه.. كان توّاقاً إلى شيء منظور يتعبّد به، يتحدث إليه مباشرةً؛ وجهاً لوجه دون مانع من غيب.. فهو لا يغيب عنه، ولا يمنعه منه شيء من بُعدٍ أو ساتر أو حجاب، يراه ماثلاً أمامه، يرثه من آبائه، أو يصنعه بنفسه من أي شيء من حجر أو طين أو خشب أو...، ليست وراثته أو مواد صنعه مهمة بقدر ما يشبع رغبته، ويرضي نفسه، ويملأ عليه وقته، إنه بعمله هذا يستبدل إلاهاً واحداً غير منظور بآلهة عديدة يراها ويلمسها... وهكذا هو الإنسان حين يكون بعيداً عن عقله، مغيّباً عن فكره، لائذاً بخرافة هنا، وأسطورة هناك، تشغله عن التفكير ولو قليلاً لمعرفة ما هو فيه وما هو مطلوب منه، حتى بقي في غفلته هذه قروناً وقروناً طويلة جدًّا في التاريخ، وقد استسلم لآلهة كاذبة يراها ويلمسها صوراً عديدة، وأشكالاً متنوعة من صناعته، وألواناً يُحلّق، حولها فرحاً مسروراً، فخوراً بها، يداعبها، يضاحكها، يُغني لها، يقضي معها وقتاً، لا أدري لعلّه يجد راحته في ذلك!!

---

١ . سورة الأعراف : ١٦ ـ ١٧ .

لقد راحوا يعظّمونها، ويتفاخرون بها، ويتكاثرون بعددها وبكبرها وشكلها الفنّي، وبسخائهم لها، وأيضاً بعطائها كما يتوهمون...، جميع هذه وغيرها مما لا يحضرني أسباب لعبادة الأصنام والأوثان، وكثرتها وانتشارها، وتنوع أنماطها...

أسماءُ الأصنام:

ذُكر في التنزيل العزيز أسماء لهذه الأصنام؛ راح روّادها وعبّادها يطلقونها عليها، ففي عهد نبيِّ الله نوح؛ ثاني نبيٍّ، وأوّل رسول أرسل إلى الأرض وقد امتلأت كفراً، كانت هناك آلهة يعبدونها، فخصّوا خمسة منها بأسماء تعظيماً لها بزعمهم؛ في معرض ردّهم لدعوة نوح عليه السلام، وعصيانهم وتمردهم عليه، ونهيهم الآخرين عن تركها؛ وهي كما في:

﴿وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾.[١]

وكذلك في قوم إلياس، كما في:

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ﴾.[٢]

وفي مشركي العرب كما في:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱللاَّتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلأُخْرَىٰ ﴾.[٣]

فهذه أسماء لأصنام عُبدت من دون الله تعالى، راح عبّادوها يستبسلون في الدفاع ضدَّ أي دعوة للإطاحة بها، وإنهاء عبادتها..، والاكتفاء بالتوجه إلى

---

١. سورة نوح : ٢٣ .

٢. سورة الصافات : ١٢٥ .

٣. سورة النجم : ١٩ ـ ٢٠ .

الله تعالى..

سنقف عند هذه الأسماء ونحن نتعرض لمواقف عدد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

مواقف:

إنَّ جميع الأنبياء والرسل والصالحين عبر التاريخ وقفوا ضدَّ عبادة الأوثان والأصنام؛ وضدَّ أسبابها، التي هي جهل وعمى وظلم وهوى متّبع؛ وهي تضييع للبصائر، وتجهيل للعقول، وإطاعة للشيطان...

وكان هدفهم عليهم السلام، الذي يدعون إليه الخلق جميعاً: ﴿**أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ ...**﴾، والقائل:

﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰبَنِى ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ ٱلشَّيطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾.

نكتفي بذكر مواقف لبعض الأنبياء ذكرهم التنزيل العزيز:

الأول: موقف نبيِّ الله نوح عليه السلام.

لقد كان موقفه عليه السلام؛ بعد أن أرسلته السماء إلى قومه؛ وهم يعبدون الأصنام، يتمثل بدعوتهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده، وإلى ترك عبادة ما لا ينفعهم ولا يضرّهم، فما كان منهم إلاّ إصراراً على ما كانوا يعبدون، واستهزاءً به وبدعوته وبمن كان معه من المؤمنين. وقد ذكرت قصة نوح مع قومه في آيات كثيرة، نكتفي منها بما له علاقة صريحة بالأصنام، كما في سورة نوح:

﴿**إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾.

﴿**أَنِ ٱعبُدُواْ ٱللهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * ... * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾.

فذكر القرآن المجيد ممانعتهم وردّهم عليه حتى وصف عملهم هذا بقوله: ﴿**وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً**﴾.[١]

أي بالغ الغاية في الكبر بأن كذبوا نوحاً عليه السلام وآذوه ومن اتبعه، أو مكروا في دين الله مكراً كبيراً عظيماً، أو قالوا قولاً عظيماً، أو اجترأوا على الله وكذبوا رسله؛ وذلك حين قال بعضُهم لبعض:

﴿**وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً**﴾.[٢]

يقول الرازي، بعد أن ذكر أنَّ آية:

أي الآية ﴿**مَن لَّمْ يَزِدْهُ**﴾، ﴿**وَمَكَرُواْ**﴾، معطوف على:

﴿**قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً**﴾.[٣]

لأن المتبوعين هم الذين مكروا، وقالوا للأتباع ﴿**لاَ تَذَرُنَّ**﴾.. المكر الكبار هو أنهم قالوا لأتباعهم ﴿**لاَ تَذَرُنَّ وَدّاً**﴾. فهم منعوا القوم عن التوحيد، وأمروهم بالشرك، ولما كان التوحيد أعظم المراتب، لا جرم كان المنع منه أعظم الكبائر، فلهذا وصفه الله تعالى بأنه كبار، واستدل بهذا من فضل علم الكلام على سائر العلوم، فقال: الأمر بالشرك كبار في القبح والخزي، فالأمر بالتوحيد والإرشاد وجب أن يكون كباراً في الخير والدين.

وأنه تعالى إنما سماه مكراً لوجهين:

---

١. سورة نوح : ٢٢ .

٢. سورة نوح : ٢٣ .

٣. سورة نوح : ٢١ .

الأول: لما في إضافة الإلهية إليهم من الحيلة الموجبة لاستمرارهم على عبادتها، كأنهم قالوا: هذه الأصنام آلهة لكم، وكانت آلهة لآبائكم، فلو قبلتم قول نوح؛ لاعترفتم على أنفسكم بأنكم كنتم جاهلين ضالين كافرين، وعلى آبائكم بأنهم كانوا كذلك، ولما كان اعتراف الإنسان على نفسه، وعلى جميع أسلافه بالقصور والنقص والجهل شاقاً شديداً، صارت الإشارة إلى هذه المعاني بلفظ آلهتكم صارفاً لهم عن الدين، فلأجل اشتمال هذا الكلام على هذه الحيلة الخفية سمى الله كلامهم مكراً.

الثاني: أنه تعالى حكى عن أولئك المتبوعين أنهم كان لهم مال وولد، فلعلهم قالوا لأتباعهم: إنَّ آلهتكم خير من إله نوح، لأن آلهتكم يعطونكم المال والولد، وإله نوح لا يعطيه شيئاً لأنه فقير، فبهذا المكر صرفوهم عن طاعة نوح، وهذا مثل مكر فرعون إذ قال:

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾.[1]

وقال:

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ۞ فَلَوْلاَ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾.[2]

لقد اشربت بها نفوسهم، وأحبوها حبًّا عظيماً، وسموها بأسماء محببة إلى نفوسهم، وصاروا يدافعون عنها، ويمنعون أي فعل أو قول لتقويض عبادتها.. وينهون أتباعهم عن نبذها أو ترك الدفاع عنها: ﴿لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾، بإضافتها إليهم،

---

١. سورة الزخرف : ٥١ .

٢. سورة الزخرف : ٥٢؛ تفسير مفاتيح الغيب؛ التفسير الكبير، الرازي (ت ٦٠٦ هـ) : الآيات من سورة نوح.

تحريضاً لهم وزيادةً في إثارة نخوتهم عليها، ثمَّ يؤكدون ذلك بتكرار نهيهم: ﴿**وَلاَ تَذَرُنَّ**﴾، ولكن هذه المرّة بذكر عدد منها، أو بتخصيص الأهم منها، وهو أسلوب عاطفي ماكر يهيج في نفوس عوامهم الاعتزاز بها، وحمية الدفاع عنها وعدم التفريط بها..

إذن لم يكتفوا بالنهي الأول لمطلق أصنامهم، لا تتركوا عبادة أصنامكم، بل راحوا يخصّون أصناماً خمساً تعظيماً لها، وقد عبدتها العرب فيما بعد، كما نقلت ذلك الأخبار..

﴿**وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً**﴾.[1]

يقول الرازي: واعلم أن نوحاً لما حكى عنهم أنهم قالوا لأتباعهم: ﴿**لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ**﴾، قال:

﴿**وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً**﴾، فيه وجهان:

الأول: أولئك الرُؤساء قد أضلوا كثيراً قبل الموصين بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام، وليس هذا أول مرة اشتغلوا بالإضلال.

الثاني: يجوز أن يكون الضمير عائداً إلى الأصنام، كقوله:

﴿**إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ ٱلنَّاسِ**﴾.[2]

وأجرى الأصنام على هذا القول مجرى الآدميين كقوله:

﴿**أَلَهُمْ أَرْجُلٌ**﴾.[3]

وبسبب موقفهم هذا ضلَّ كثير من الناس.. وما كان من نبيِّ الله نوح، وهو

---

١. سورة نوح : ٢٤ .

٢. سورة إبراهيم : ٣٦ .

٣. سورة الأعراف : ١٩٥ .

يرى ذلك منهم، يرى تكذيبهم له، وعنادهم، وتحريضهم الآخرين ضدَّ دعوته، وأذاهم له ولمن تبعه، وحتى ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم بترك طريق الهدى والرشاد، الذي دعاهم له، إلاّ أن يلجأ إلى الله تعالى متضرعاً داعياً:

﴿وَلاَ تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً﴾.[1]

إلاّ هلاكاً؛ أو منعاً لألطافه تعالى، ومنعاً من الطاعات، أو فتنةً في المال والولد.. عقوبةً لهم على استكبارهم وتحديهم لكلمة السماء.. لا ضلالاً عن الحق والإيمان؛ لأن ذلك لا يجوز في صفة الحكيم تعالى الله عن ذلك..

وهنا سؤالان:

يذكرهما الرازي ويجيب عنهما: الأول: كيف موقع قوله: ﴿وَلاَ تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ﴾؟

الجواب: كأن نوحاً عليه السلام لما أطنب في تعديد أفعالهم المنكرة وأقوالهم القبيحة، امتلأ قلبه غيظاً وغضباً عليهم، فختم كلامه بأن دعا عليهم.

السؤال الثاني: إنما بعث ليصرفهم عن الضلال، فكيف يليق به أن يدعو الله في أن يزيد في ضلالهم؟

الجواب من وجهين:

الأول: لعلّه ليس المراد الضلال في أمر الدين، بل الضلال في أمر دنياهم، وفي ترويج مكرهم وحيلهم.

الثاني: الضلال العذاب؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾.[2]

---

١. سورة نوح : ٢٤ .

٢. القمر: ٤٧؛ مجمع البيان، للطبرسي؛ مفاتيح الغيب؛ التفسير الكبير، الرازي. الآية: بتصرف.

إذن نحن أمام هذا الخماسي «ودّ وسُواع ويغوث ويعوق ونسر».

فمَن هم هؤلاء؟!

المتحقق أنّها أصنام عُبدت في زمن النبيِّ نوح عليه السلام، وقفوا يدافعون عنها وعن عبادتها، يحرضون أنفسهم وأهليهم والآخرين على التمسك بها واتباعها، وينهونهم عن تركها...

﴿**لاَ تَذَرُنَّ**﴾، أي لا تتركنَّ، أو لا تدعنَّ عبادتها، وهذا معناه أنهم وقفوا ضدَّ دعوة هذا النبيِّ عليه السلام، وراحوا يُغلقون الأبواب في وجهها في معرض الاعتراض عليه، ورفض ما يدعو إليه من ترك الأصنام وعبادتها...

ولكن إن صحّت الأخبار والأقوال، وهي كثيرة، وقد اختلفت فيها، ولكن من خلالها يمكننا معرفة مبدإ عبادة الأصنام، وإلاّ فإنَّ هذه الأسماء، ذُكرت في التنزيل العزيز، وأنَّها من قِبَل مشركي قوم نوح عليه السلام، وبالتالي فقد تكون عندهم البداية، وهذا يكفينا..

والأقوال هي:

قول: كان الناس بعد آدم كلهم يعبدون الله، وبعد قرون طويلة كان هناك خمسة رجال، عرفوا بالصلاح في الدين، فلما ماتوا اشتاق لهم قومهم، فقالوا: نجعل لهم تماثيل ونضعها في المجلس الذي اعتادوا الجلوس فيه، ونجلس نتحدث، وكأنهم معنى لم يفارقونا، و لم يعبدوهم و لم يتقربوا إليهم بشيء، بل كانوا مجرد تماثيل كالصور اليوم تذكر بالعظماء، و بعد مرور قرون أخرى على هذا الحدث، أخذ كلُّ جيل جديد يضيف شيئاً من التعظيم للتماثيل؛ حتى جاء جيل قالوا: ما هذه التماثيل إلاّ آلهة عبدها أسلافنا فعبدوها، وهكذا قلدهم الناس في كل مكان بعبادتها، فكانت الأصنام..

وقول: إنّ هذه أسماء قوم صالحين كانوا في صدر الزمان، فنشأ قوم بعدهم يأخذون أخذهم في العبادة، فقال لهم إبليس: لو صوَّرتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة، ففعلوا فنشأ بعدهم قوم، فقال لهم إبليس: إنَّ الذين كانوا قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم.. أو أنّهم كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح عليهما السلام، وكان لهم تَبَع يقتدون بهم، فلما ماتوا زَيّن لهم إبليس أن يصوّروا صورهم؛ ليتذكروا بها اجتهادهم، وليتسَلّوا بالنظر إليها، فصوّرهم. فلما ماتوا هُم، وجاء آخرون قالوا: لَيْتَ شِعْرَنَا! هذه الصور ما كان آباؤنا يصنعون بها؟!

فجاءهم الشيطان فقال: كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر، فعبدوها!

وقول: إنَّهم أولاد آدم عليه السلام، وهم: وَدٌّ، وسُواعٌ، ويغوثُ، ويعوقُ، ونسرٌ. وحين اشتكى آدم وكان وَدّ أكبرَهم وأبرَّهم به. أو كان لآدم عليه السلام خمس بنين: وَدّ وسُواع ويغوث ويعوق ونسر، وكانوا عُبَّاداً، فمات واحد منهم فحزنوا عليه، فقال الشيطان: أنا أصوّر لكم مثله إذا نظرتم إليه ذكرتموه. قالوا: افعل. فصوّره في المسجد من صُفْر ورصاص. ثم مات آخر، فصوّره حتى ماتوا كلهم فصوّرهم. وتنقّصت الأشياء كما تتنقّص اليوم إلى أن تركوا عبادة الله تعالى بعد حين. فقال لهم الشيطان: ما لكم لا تعبدون شيئاً؟ قالوا: وما نعبد؟ قال: آلهتكم وآلهة آبائكم، ألا ترون في مُصَلاّكم. فعبدوها من دون الله، حتى بعث الله نوحاً فقالوا: ﴿**لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً**﴾، الآية.

قول: كان الناس بعد آدم كلهم يعبدون الله، وبعد قرون طويلة كان هناك خمسة رجال، عرفوا بالصلاح في الدين، فلما ماتوا اشتاق لهم قومهم، فقالوا: نجعل لهم تماثيل ونضعها في المجلس الذي اعتادوا الجلوس فيه، ونجلس نتحدث، وكأنهم معنى لم يفارقونا، و لم يعبدوهم و لم يتقربوا إليهم بشيء، بل كانوا مجرد تماثيل

كالصور اليوم تذكر بالعظماء، و بعد مرور قرون أخرى على هذا الحدث، أخذ كلُّ جيل جديد يضيف شيئاً من التعظيم للتماثيل؛ حتى جاء جيل قالوا: ما هذه التماثيل إلاّ آلهة عبدها أسلافنا فعبدوها، وهكذا قلدهم الناس في كل مكان بعبادتها، فكانت الأصنام..

وقول **يجمع بين كونها**: أسماء رجال صالحين كانوا في صدر الزمان، أو أنهم كانوا بني آدم، وكان ودّاً أكبرهم وأبرّهم به... أو هم بنو آدم ونوح عليهما السلام، ماتوا فصورت أشكالهم لتذكر أفعالهم الصالحة، ثم هلك من صورهم وخلف من يعظمها، حتى عُبدت طيلة ﴿**ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ**﴾، قوم نوح وعاد وثمود..

وقول: كان نوح يحرس جسد آدم على جبل بالهند ويحول بينه وبين الكفار؛ لئلا يطوفوا بقبره، فقال لهم إبليس: إنَّ هؤلاء يفخرون عليكم ويزعمون أنهم بنو آدم دونكم، وإنما هو جسد، وأنا أصوّر لكم مثله تطيفون به، فنحت خمسة أصنام وحملهم على عبادتها، وهي ودّ وسواع ويعوق ويغوث ونسر.

وقول: هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم، تذكروهم بها، ففعلوا، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عُبدت من دون الله تعالى.

قول: إنَّ القرون التي بين نبيِّ الله آدم عليه السلام وعهد نبيِّ الله نوح عليه السلام، شهدت بدايةَ وجود الأصنام، وبالتالي عبادتها، لا أنَّ قوم نوح هم الذين أوجدوها وعبدوها، وأنَّ القرون التي سبقتهم خلت منها... فقد ذكر ابن إسحاق ما كان في قوم نوح ومن قبلهم من عبادة الأصنام، وتلك هي الجاهلية

الأولى، التي ذكرها الله في القرآن في قوله: ﴿**وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى**﴾،[1] وكان بدء ذلك في عهد مهلايل بن قينان فيما ذكروا...

وقول: إنَّهم كانوا كلُّهم رجالاً يحبّهم الناس، فلما ماتوا ذهب الشيطان إلى أهلهم، وتجسّد في صورة رجل طيب، وقال لهم: يمكن أن أصنع لكم تمثالاً يشبه من تحبوه، وبالتالي يظل موجوداً بينكم طول الوقت، ثمَّ صار موضع عبادتهم.

وقول: هي مجرد أصنام وصُوَر، كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب وهذا قول الجمهور.

وفي رواية عن جعفر بن محمد عليهما السلام في الآية:

قال: كانوا يعبدون الله عزَّوجلَّ، فماتوا، فضجَّ قومهم وشقَّ ذلك عليهم، فجاءهم إبليس لعنه الله، فقال لهم: اتخذ لكم أصناماً على صورهم، فتنظرون إليهم، وتأنسون بهم، وتعبدون الله. فأعدَّ لهم أصناماً على مثالهم، فكانوا يعبدون الله عزَّوجلَّ، وينظرون إلى تلك الأصنام، فلما جاءهم الشتاء والأمطار، أدخلوا الأصنام البيوت، فلم يزالوا يعبدون الله عزَّوجلَّ حتى هلك ذلك القرن، ونشأ أولادهم، فقالوا: إنَّ آباءنا كانوا يعبدون هؤلاء، فعبدوهم من دون الله عزَّوجلَّ، فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿**ولا تذرن ودًّا ولا سواعاً ...**﴾، الآية.

فهذه الأقوال ـ إن صحّت ـ بخصوص هذه الخمسة، تُعدُّ مبدأ عبادة الأصنام والأوثان من ذلك الوقت، وأنَّ بدايتها كانت حبًّا وولاءً وتذكيراً وتقديساً للصالحين حتى وصل الأمر إلى عبادتهم رويداً رويداً.

و بقيت إلى زمن نبيِّ الله نوح عليه السلام، فلما كان أيام الطوفان دفنها الطين والتراب والماء، فلم تزل مدفونةً حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب.

---

١. سورة الأحزاب : ٣٣ .

وقيل: إنها للعرب لم يعبدها غيرهم. وكانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم، فلذلك خَصُّوها بالذكر بعد قوله تعالى: ﴿**لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ**﴾. ويكون معنى الكلام كما قال قوم نوح لأتباعهم: ﴿**لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ**﴾ قالت العرب لأولادهم وقومهم: لا تذرُنّ ودًّا ولاَ سُوَاعاً ولاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً.[1]

وأين وصل الخماسيُّ هذا؟!

فهل وصل إلى عهد إبراهيم عليه السلام، وظلّ يُعبد عبر القرون والأجيال حتى وصل إلى مشركي العرب في الجاهلية، و وزِّعت هذه الأصنام الخمسة هنا وهناك، مكة وما حولها.. فلوّثت ذلك الوادي المبارك.

فكان (وَدٌّ) على صورة رجل، وهو أوّل صنم معبود، سُمي ودًّا لودّهم له؛ من بعد قوم نوح لكَلْب بدومة الجَنْدَل، وفيه يقول شاعرهم:

حَيّاك ودٌّ فإنّا لا يحلّ لنا لَهْوُ النساء وإن الدين قد عَزَمَا

وأما سُواعٌ وهو على صورة ٱمرأة، فكان لهذيل بساحل البحر.

وأما يَغُوثُ، فكان لغُطَيف من مُراد بالجَوْف من سبإٍ في قولٍ، وفي آخر لمُراد ثم لغطَفان.

وأما يغوث، وكان من رَصاص على صورة أسد، يحملونه على جمل أحْرَد، ويسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يَبْرُك، فإذا بَرَك نزلوا، وقالوا: قد رضي لكم المنزل، فيضربون عليه بناءً ينزلون حوله، فأخذته أعلى وأنعم ـــ وهما من طيء ـ وأهل جُرَش من مَذحج، فذهبوا به إلى مراد فعبدوه زماناً. ثمَّ إنَّ بني

---

١. انظر الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي؛ ومجمع البيان، للطبرسي؛ وتفسير زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي؛ وعلل الشرائع، للشيخ الصدوق ١: ٤ وغيرها : الآية.

ناجية أرادوا نزعه من أعلى وأنعم، ففرّوا به إلى الحُصين أخي بني الحارث بن كعب من خُزاعة.

وأما يَعُوق وهو على صورة فرس، فكان لهَمْدان ببَلْخَع في قول ، وفي آخر كان لكَهْلان من سَبَإ، ثم توارثه بنوه، الأكبر فالأكبر حتى صار إلى هَمْدان. وفيه يقول مالك ابن نمط الهمداني:

يَريشُ الله في الدنيا ويَبْرى ولا يَبْرِي يعوقُ ولا يَرِيشُ

وأما نسرٌ، فمن اسمه واضح أنه على صورة نَسْر من الطير، فكان لذي الكَلاَع من حِمْير.

أما في عهد نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، فلا نجد لهذا الخماسي، ولا للأصنام ولا للأوثان اسماً يُطلق عليها في التنزيل العزيز، مع كثرتها وانتشار عبادتها، ومع أنه عليه السلام قارعها أشدّ مقارعة، وسخّف عبادتها بل هدّد وتوعّد:

﴿وَتَٱللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً﴾، كما يأتينا.

وقد يكون عدم ذكر أسماء لها في عهده؛ لأنها هي نفسها التي كانت في عهد نوح، وتوارثوها قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل..

بل وتوارثتها جاهلية العرب ووثنيتها بعد زمن طويل جدًّا.. وهذا ما تكفّلت بذكره بعض الأخبار، ولا أدري فلعلها غفلت أنَّ الطوفان الذي حدث في زمن النبيِّ نوح عليه السلام كما لم يُبقِ أحداً من أولئك الظالمين حتى ابن نوح نفسه:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ﴾.

﴿قَالَ يٰا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾.[١]

لم يُبق هذه الأصنام؛ وقد تكون هلكت مع غيرها بالطوفان، ونُسي ذكرها وأسماؤها؛ لأنَّ الطوفان أخذهم وأطاح بالكفر والشرك وآثاره، ولم يترك شيئاً من الشرك إلاّ وأخذه؛ لأنَّ الطوفان أخذهم أخذ عذاب؛ جزاءً من الله عزَّوجلَّ على كفرهم وشركهم وعنادهم وظلمهم... فكيف يبقى شيءٌ يُذكر؟! إلاّ السفينة ومن عليها! وبهذا تكون آيةً للعالمين!

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وأَصْحَابَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.[٢]

فالطوفان الذي عمَّ كلَّ الأرض، عمَّ البلاد والعباد، كما هو ظاهر الآية، يُعدُّ الحدَّ الفاصل بين مرحلتين:

مرحلة الشرك بأهلها؛ فجرفهم الطوفان وهم ظالمون بسبب كفرهم وعنادهم وإعراضهم عن نوح نبيّ الله، وعن دعوته وهي دعوته تعالى، فنزل العذاب أو الموت بتلك المرحلة من حياة البشر، ومنه قول الراجز:

أفناهم طوفانُ موتٍ جارف!

لتبدأ مرحلة الإيمان وأهله الذين أنجاهم الله تعالى، وقد كتبت السماء لهذا الحدث ولهذه المرحلة ومن فيها ولسفينة نجاتهم أن تبقى آيةً للناس جميعاً..

سؤال: فكيف انتقل هذا الخماسي؟

---

١. سورة هود : ٤٥ ـ ٤٧ .

٢. سورة العنكبوت : ١٤ .

أهو بأعيانه، أو بأسمائه فقط إلى قبائل من العرب في جاهليّة شبه الجزيرة العربية؛ لتنضمَّ إلى الثلاثي الآخر في الآيتين ١٩ ـ ٢٠ من سورة النجم:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

مع أصنام ذكرتها الأخبار، فتُشكل منظومة معبودات أهل الجاهلية من قريش وغيرها؟!

اللهم إلاّ أن يكون إبليس من استعانت به الأخبار لحلّ هذه العقدة أو المعضلة، وفعلاً هو كذلك، وأنه أخرج هذه الأصنام من مدفنها بعد أن طمّها التراب زمن الطوفان، وكما أخرجها لمشركي العرب، وبينهم وبين الطوفان قرون طويلة جدًّا جدًّا، لقادر على إخراجها لقوم إبراهيم عليه السلام، فالأمر أيسر له؛ لأنهم أقرب بكثير لزمن الطوفان من مشركي العرب، الذين عبدوها!

أو أن يكون من نجا من الطوفان من أهل السفينة، أو من غيرهم على القول: إنَّ الطوفان لم يكن عامّاً لكل الأرض، ذكر أسماءها، كمن يذكر أخبار التاريخ وذكريات الماضي، وأسماء رموزه، فتناقلتها الألسنة جيلاً بعد جيل..

وخفتُ الوحدة وأنا أجمل قولي هذا، لكني وأنا أقرأ ما تيسر لي من التفاسير، قرأتُ للسيد الطباطبائي استبعاده لانتقال تلك الأصنام حيث يقول: لعل المراد بصيرورة تلك الأصنام التي كانت لقوم نوح إلى العرب مطابقة ما عند العرب لما كان عندهم في الأسماء أو في الأوصاف والأسماء.

وأما انتقال تلك الأصنام بأشخاصهن إلى العرب فبعيد غايته.

ولكني وجدت قولاً للرازي أكثر وضوحاً؛ خفّف عليَّ تلك الوحدة و وحشتها، وهو يذكر بعد قوله في المسألة السادسة: هذه الأصنام الخمسة كانت أكبر أصنامهم، ثم إنها انتقلت عن قوم نوح إلى العرب، فكان وَدّ لكلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمذحج، ويعوق لمراد، ونسر لحمير؛ ولذلك سمّت العرب بعبد وَدّ،

وعبد يغوث..

ثمَّ يواصل قائلاً:

هكذا قيل في الكتب، وفيه إشكال لأن الدنيا قد خربت في زمان الطوفان، فكيف بقيت تلك الأصنام؟! وكيف انتقلت إلى العرب؟!

ولا يمكن أن يقال: إنَّ نوحاً عليه السلام وضعها في السفينة وأمسكها؛ لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها، فكيف يمكن أن يقال: إنه وضعها في السفينة سعياً منه في حفظها؟[1]

الثاني: موقف نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام:

أما في عصر سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وعندما كانت عقيدتهم أصنامًا وأوثاناً تُعبد من دون الله، فإن موقفه عليه السلام تجسّد أخيراً ــ حين لم ينتفعوا بأدلته وتذكيره ووعظه وتحذيره من عواقب ما يفعلون ـ في تحطيم هذه التماثيل؛ دفاعاً عن التوحيد، وإزالةً للشرك، ومنعًا لشوائب يمكن أن تغري الناس بعبادة غير الله، فتلوّث فطرتهم ، وتزيدهم ضلالاً...

وهذه الآيات القرآنية تبين لنا مواقف إبراهيم، و ردود فعل قومه:

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۞ قَالُواْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۞ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ قَالُواْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللاَّعِبِينَ ۞ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَاْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ مِّنَ ٱلشَّاهِدِينَ﴾.

ثمَّ أقسم عليه السلام بعد حواره الرائع لهم، وبعد أن رأى منهم عناداً واستكباراً ورفضاً لجميع أدلته وأقواله:

---

١. الميزان في تفسير القرآن؛ ومفاتيح الغيب، للرازي: الآيتان من سورة النجم.

﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾.

حدث هذا كجزء من الحوار حين يشتدُّ بين المتحاورين، وقد دار هذا الحوار حتى صار جدالاً، وهو يحاول إقناعهم أنَّ هذه الأصنام إن هي إلاّ حجارة لا تؤدي لهم شيئاً يُذكر، وبالتالي فهي لا تستحق تقديراً فضلاً عن عبادتها.. فلما لم يجد منهم إلاّ العناد والمكابرة والتمسّك بها.. أقسم قائلاً:

﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾.

وفعلاً نفّذ إبراهيم ما اعتزم عليه، وتوجّه لتكسيرها؛ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.[1]

وفي آيات أخرى:

﴿فَرَاغَ إِلىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ۞ مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ ۞ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾.[2]

﴿جُذَاذاً﴾، فإذا بها حطاماً؛ أحجاراً صغيرة مرمية هنا، وأخشاباً مهشمة هناك!...

وليس هذا فقط، بل ترك كبيرهم:

﴿إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

زيادةً في تقريعهم، فلعلّهم يدركون أنه عديم الضرر وعديم الفائدة، فلا كبيرها ولا هي مجتمعة تستطيع أن تدافع عن نفسها فضلاً عن غيرها، وعلّق فأسه على كبيرها كما في الخبر؛ عسى أن يُقنعهم بعجزها، وأنها لا تردّ على ما يُراد بها ويُفعل، وبالتالي لعلّهم أيضاً يدركون سخف عكوفهم عليها، وتفاهت عبادتهم لكبيرها فضلاً

---

١. سورة الأنبياء ٥٧ ـ ٥٨ .

٢. سورة الصافات : ٩١ ـ ٩٣ .

عن أوثان وأصنام أصغر حجماً منه...

لقد ترك ما لعلّهم بعدم نصرته لما حوله من صغار أصنامهم يتعظون، أو تخيب آمالهم حين لا يجيبهم عما يسألون... وبالتالي يعودون إلى عقولهم فلعلهم يرشدون.

حتى وإن تتفتح عقولهم دقائق، يتحسسون ما هم عليه من سخف وضلالة، ولكن هيهات، فسرعان ما يعودون إلى تخلفهم وضلالهم القديم، فقد عطلت الخرافة عقولهم، وأغلق تقليد آبائهم منافذ التأمل والتدبر عندهم... فلم يجدوا حلاً لمعضلتهم هذه إلا البحث عمن فعل هذا بآلهتهم كما يصرون على تسميتها وهم يرونها قطعاً تافهة، والانتقام منه... بعد أن لم يجدوا منه إلاّ استمراراً في حواره لهم وموقفه منهم ومما يعبدون...

﴿**قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَآ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ ۞ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۞ قَالُواْ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا يَـٰإِبْرَاهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنْطِقُونَ ۞ فَرَجَعُواْ إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُواْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّالِمُونَ ۞ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰؤُلاءِ يَنطِقُونَ ۞ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ۞ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُواْ آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۞ قُلْنَا يٰا نَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلَاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۞ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلأَخْسَرِينَ**﴾.[1]

وهكذا هو خليل الله في منهجه المناوئ لهذه الظاهرة العبادية السيئة، يجسّده في حوار دائم معهم، وفي عمل جادٍ لإنقاذهم، يرافق ذلك كله ألم يُكابده وحسرة عليهم... نقرأ منهجه هذا في الشعراء : ٦٩ـ ٨١، والعنكبوت ١٦ ـ ٢٤، والصافات ٨٦ ـ ٩٩...

---

١. سورة الأنبياء : ٥٣ ـ ٧١ .

وقفة قصيرة مع:

﴿قَالُواْ أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هـٰذَا بِآلِهَتِنَا يٰا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ﴾.

ففي قول إبراهيم عليه السلام، لهم أقوال عديدة، منها أنه كذبة، وقد استند صاحبها على ما روي عن أبي هريرة، وقد يكون عن غيره أيضاً: أن النبيَّ صلى الله عليه وآله قال:

لم يكذب إبراهيم إلاّ ثلاثَ كَذبات ثنتين منه في ذات الله... وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هـٰذَا...﴾.

وقد يكون هناك لغيره، وقد رأيت الرازي يقول عن هذا الخبر وتبريره: ... أما الخبر الأول وهو الذي رووه؛ فلإن يضاف الكذب إلى رواته أولى من أن يضاف إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة ويأذن الله تعالى فيه، فلنجوز هذا الاحتمال في كل ما أخبروا عنه، وفي كل ما أخبر الله تعالى عنه، وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة إلى كلها...

وابن عاشور بعد أن يفصل القول، ويذكر الخبر عن أبي هريرة، يقول: أما الإخبار بقوله: ﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هـٰذَا﴾، فليس كذباً وإن كان مخالفاً للواقع ولاعتقاد المتكلم؛ لأن الكلام والأخبار إنما تستقر بأواخرها وما يعقبها، كالكلام المعقب بشرط أو استثناء، فإنه لما قصد تنبيههم على خطإ عبادتهم للأصنام مهدّ لذلك كلاماً هو جار على الفرض والتقدير فكأنه قال: لو كان هذا إلهاً لما رضي بالاعتداء على شركائه، فلما حصل الاعتداء عليهم بمحضر كبيرهم تعين أن يكون هو الفاعلَ لذلك، ثم ارتقى في الاستدلال بأن سلبَ الإلهية عن جميعهم بقوله: ﴿إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ﴾، كما تقدم. فالمراد من الحديث أنها كذبات في بادىء الأمر وأنها عند التأمل يظهر

المقصود منها. وذلك أن النهي عن الكذب إنما علته خدع المخاطب وما يتسبب على الخبر المكذوب من جريان الأعمال على اعتبار؛ الواقعُ بخلافه. فإذا كان الخبر يُعقب بالصدق لم يكن ذلك من الكذب بل كان تعريضاً أو مزحاً أو نحوهما...

ثمَّ أنا لا أدري لماذا يبتعد بعضهم عن إعراب الآية، وأنَّ (إن) في الآية تنجي من اتهام نبيٍّ من أنبياء أولي العزم بالكذب، إن كانت الآلهة تنطق فإنَّ كبيرهم هو الذي كسرهم، لأنَّ إن شرطية، وكانوا فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والواو اسمها وجملة ينطقون خبرها، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه ما قبله أي فاسألوهم.

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: و الله ما فعله كبيرهم، و ما كذب إبراهيم عليه السلام.

فقيل له: كيف ذلك؟

فقال: إنما قال: فعله كبيرهم هذا إن نطق، وإن لم ينطق فلم يفعل كبيرهم هذا شيئاً.

فلعل هذا يدفع القول الآخر الذي يذهب إلى أنها كذبة من إبراهيم عليه السلام..

ولكن الطبري بعد أن يذكر قول القائل: بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم، أي إن كانت الآلهة المكسورة تنطق فإن كبيرهم هو الذي كسرهم.

يقول: وهذا قول خلاف ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أن إبراهيم لم يكذب إلاّ ثلاث كَذَبات كلّها في الله، قوله: ﴿**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا**﴾، وقوله لسارة: هي أختي. ﴿**إِنِّي سَقِيمٌ**﴾.

وعدَّ هذا مما أذن الله به، حيث يقول: وغير مستحيل أن يكون الله تعالى

ذكْره أذِن لخليله في ذلك، ليقرِّع قومه به، ويحتجّ به عليهم، ويعرّفهم موضع خطئهم، وسوء نظرهم لأنفسهم، كما قال مؤذّن يوسف لإخوته:

﴿أَيَّتُها العيرُ إنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾.

ولم يكونوا سرقوا شيئاً.

فيما الشيخ الطبرسي يقول عن هذا الخبر، أنه مما لا يعوّل عليه، فقد دلَّت الأدلة العقلية التي لا تحتمل التأويل على أن الأنبياء لا يجوز عليهم الكذب وإن لم يقصدوا به غروراً ولا ضرراً، كما لا يجوز عليهم التعمية في الأخبار ولا التقية؛ لأن ذلك يؤدّي إلى التشكك في أخبارهم.

وكلام إبراهيم عليه السلام يجوز أن يكون من المعاريض فقد أبيح ذلك عند الضرورة وقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال... «إن الكذب لا يصلح في جد ولا هزل».

وقد ذكر قبل هذا الوجه وجهين آخرين:

أحدها: أنه مقيّد بقوله: ﴿إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ﴾، والتقدير فقد فعله كبيرهم إن نطقوا فاسألوهم فقد علَّق الكلام بشرط لا يوجد فلا يكون كذباً ويكون كقول القائل: فلان صادق فيما يقول: إن لم يكن فوقنا سماء.

وثانيها: أنه خرج مخرج الخبر وليس بخبر إنما هو إلزام يدلُّ عليه الحال فكأنه قال: ما ينكرون أن يكون فعله كبيرهم هذا، والإلزام يأتي تارة بلفظ السؤال وتارة بلفظ الأمر وتارة بلفظ الخبر، وربما يكون أحد هذه الأمور أبلغ فيه، ووجه الإلزام أن هذه الأصنام إن كانت آلهة كما تزعمون فإنما فعل ذلك بهم كبيرهم لأن غير الإله لا يقدر أن يكسر الآلهة.

وسيد قطب هو الآخر يرفض أن تكون كذبةً، وعدَّ الأمر تهكماً ساخراً قد هزّهم هزًّا، وردّهم إلى شيء من التدبر والتفكير.. حيث يقول:

والتهكم واضح في هذا الجواب الساخر. فلا داعي لتسمية هذه كذبة من

إبراهيم ـ عليه السلام ـ والبحث عن تعليلها بشتى العلل التي اختلف عليها المفسرون. فالأمر أيسر من هذا بكثير! إنما أراد أن يقول لهم: إنَّ هذه التماثيل لا تدري من حطمها إن كنت أنا أم هذا الصنم الكبير، الذي لا يملك مثلها حراكاً. فهي جماد لا إدراك له أصلاً. وأنتم كذلك مثلها مسلوبو الإدراك لا تميزون بين الجائز والمستحيل. فلا تعرفون إن كنت أنا الذي حطمتها أم إن هذا التمثال هو الذي حطمها! ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ﴾!

ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزّهم هزّاً، وردّهم إلى شيء من التدبر والتفكر: ﴿فَرَجَعُواْ إِلىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُواْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما في موقفهم من سخف، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم. وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسهم، وذلك الظلم الذي هم فيه سادرون، ولكنها لم تكن إلاّ ومضة واحدة أعقبها الظلام، وإلاّ خفقة واحدة عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هـٰؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾.

وحقاً لقد كانت الأولى رجعة إلى النفوس، وكانت الثانية نكسة على الرؤوس؛ كما يقول التعبير القرآني المصور العجيب.. كانت الأولى حركة في النفس للنظر والتدبر. أما الثانية فكانت انقلاباً على الرأس فلا عقل ولا تفكير. وإلاّ فإن قولهم هذا الأخير هو الحجة عليهم. وأية حجة لإبراهيم أقوى من أن هؤلاء لا ينطقون؟![1]

---

١. انظر تفسير الرازي؛ والتحرير والتنوير؛ وإعراب القرآن، آل درويش؛ والبرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني؛ جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري؛ ومجمع البيان، للطبرسي؛ وفي ظلال القرآن.

لقد خلد منهجه هذا في التصدي لهذه الظواهر العبادية المنحرفة، ومن الملفت أنَّ جميع الديانات التوحيدية، وخاصة الديانات الثلاثة الكبرى (اليهودية والمسيحية والإسلام) تعود إلى نبيّ الله إبراهيم، وأنبياؤها من نسله؛ وقد تبعته هي الأخرى في الدعوة إلى عبادة الله خالق كل شيء، و وقفت بقوة تحارب الأصنام الضالة، وظواهرعبادتها المُضِلّة...

وأخيراً

فقد خلص عليه السلام إلى بيان موقف الناس من منهجه، وأنّهم أُمَّتان فقط؛ تمثلان الموقف من المشروع الإبراهيمي، بعد أن هجر قومه وما يعبدون من غير الله تعالى، منطلقاً نحو ربِّه سبحانه؛ متيقناً هدايته لما يأمل: ﴿**وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾.[1]

﴿**فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

دائرتان:

دائرة المؤمنين بمشروعه المبارك وهي دائرة التوحيد.

دائرة الرافضين لمشروعه المبارك وهي دائرة الشرك.

نتيجة طبيعية لكل فكر أو مشروع أو دين سماويًّا أكان أم أرضيًّا؛ بين من يقبله، وبين من يرفضه...

فما دام هناك تكليف، فالناس إزاءه بين متبعٍ له وعاصٍ له، هناك طاعة والطائع يُثاب، وهناك معصية والعاصي يُعاقب، وهذه سنّة حتى عند البشر في أمور حياتهم، بدليل أنهم جعلوا لهذه السنة قانوناً يتضمّن ثواباً لمن يُطيع ويتبع، ويتضمّن

---

١ . سورة الصافات : ٩٩ .

عقاباً لمن يعصي ويمتنع.

وكذلك هنـاك: ﴿... **يَـوْمَ ٱلْجَمْـعِ لاَ رَيْـبَ فِيـهِ فَرِيـقٌ فِى ٱلْجَنَّـةِ وَفَرِيـقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ**﴾.[1]

فريق في الجنة بطاعتهم.

وفريق في النار لمعصيتهم عناداً وتكبراً..

فمن تبع إبراهيم من كلّ الأمم في عبادة الله وحده، وتـرك عبـادة الأصـنام، فإنه منه وعلى دينه؛ وفي دائرة الإيمان، وإلاّ فهو في دائرة الشرك؛ لأنه ممن يعبد مـع الله غيره، وبالتالي فهو ممن عصاه..

وأي منزلة مباركة تلك التي يصفها إبراهيم عليه السلام:

﴿**فَمَن تَبِعَنِى**﴾، على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي: ﴿**فَإِنَّهُ مِنِّى**﴾، أي هـو بعضي لفرط اختصاصه بي وملابسته لي...

فمن تبعنـي علـى ما أنا علـيه من الإيـمان بك؛ وإخـلاص العبـادة لـك، وفراق عبـادة الأوثان، فإنه منـي: فإنه مستنّ بسنَّتِـي، وعامل بـمثل عملـي..

﴿**وَمَنْ عَصَانِـى فإنَّكَ غَفُورٌ رَحِيـمٌ**﴾.

ومن خالف أمري؛ فلـم يقبل منـي ما دعوته إلـيه، وأشرك بك، فإنه غفور لذنوب الـمذنبـين الـخَطائين بفضلك، رحيـم بعبـادك تعفو عمن تشاء منهم.[2]

الآلوسي: ﴿**فَمَن تَبِعَنِـى**﴾، منهم فيما أدعو إليه من التوحيد وملـة الإسـلام ﴿**فَإِنَّهُ مِنِّى**﴾، يحتمل أن تكون ﴿**مِـنْ**﴾، تبعيضية على التشبيه أي فإنـه كبعضـي في عدم الانفكاك، يحتمل، ويحتمل أن تكون اتصالية كما في قوله صلى الله عليه وسـلم

---

١. سورة الشورى : ٧ .

٢. الزمخشري، في تفسيره الكشاف؛ جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري .

لعليّ كرم الله تعالى وجهه: «أنت مني بمنزلة هٰارون من موسى».

أي فإنه متصل بـي لاينفك عني في أمر الدين، وتسميتها اتصالية؛ لأنه يفهم منها اتصال شيء بمجرورها وهي ابتدائية إلاّ أن ابتدائيته باعتبار الاتصـال كـذا في «حواشي شرح المفتاح الشريفي»، يعني أن مجرورها ليس مبدأ أو منشأ لـنفس مـا قبلها بل لاتصاله، فإما أن يقدر متعلقها فعلاً خاصاً كما قالـه الجـلال السـيوطي في بيان الخبر من أن ﴿**مِنِّى**﴾، فيه خبر المبتدأ و ﴿**مِنْ**﴾، اتصالية ومتعلق الخبر خـاص والباء زائدة بمعنى أنت متصل بـي ونازل مني بمنزلة هٰارون مـن موسـى، وإمـا أن يقدر فعل عام كما ذهب إليه الشريفي هناك أي منزلته بمنزلة كائنـة وناشـئة مـني كمنزلة هٰارون من موسى عليهما السلام، وتقديره خاصاً هنا كما فعلنا على تقـدير جعلها اتصالية مما يستطيبه الذوق السليم دون تقديره عاماً.

ابن عاشور: وذلك أن إبراهيم عليه السلام خرج مـن بلـده أُور الكلـدانيين إنكاراً على عبدة الأصنام، فقال:

﴿**إِنِّي ذَاهِبٌ إِلىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾.[1]

وقال لقومه:

﴿**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾.[2]

فلما مرَّ بمصر وجدهم يعبدون الأصنام، ثم دخل فلسـطين فوجـدهم عبـدة أصنام، ثم جاء عربَة تهامة، فأسكن بها زوجه، فوجدها خالية، ووجد حولها جُرْهمَ قوماً على الفطرة والسذاجة، فأسكن بها هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام.

ثم أقام هنالك مَعلَم التوحيد. وهو بيت الله الكعبة بناه هـو وابنـه إسماعيـل،

---

١. سورة الصافات : ٩٩ .

٢. سورة مريم : ٤٨ .

وأراد أن يكون مأوى التوحيد، وأقام ابنه هنالك؛ ليكون داعية للتوحيد. فلا جرم سأل أن يكون ذلك بلداً آمناً حتى يسلم ساكنوه وحتى يأوي إليهم من إذا آوى إليهم لقنوه أصول التوحيد.

ففرع على ذلك قوله: ﴿**فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى**﴾، أي فمن تبعني من الناس؛ فتجنب عبادة الأصنام فهو مني، فدخل في ذلك أبوه وقومه، ويدخل فيه ذريته؛ لأن الشرط يصلح للماضي والمستقبل.

و(من) في قوله: ﴿**مِنِّى**﴾، اتصالية. وأصلها التبعيض المجازي، أي فإنه متصل بي اتصال البعض بكله.

وقوله: ﴿**وَمَنْ عَصَانِى فإنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾. تأدب في مقام الدعاء ونفع للعصاة من الناس بقدر ما يستطيعه. والمعنى ومن عصاني أفوّض أمره إلى رحمتك وغفرانك. وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى. وهذا من غلبة الحلم على إبراهيم عليه السلام وخشية من استئصال عصاة ذريته. ولذلك متعهم الله قليلاً في الحياة الدنيا...

وسوق هذه الدعوة هنا للتعريض بالمشركين من العرب بأنهم لم يبروا بأبيهم إبراهيم عليه السلام، وإذ كان قوله: ﴿**إِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾، تفويضاً لم يكن فيه دلالة على أن الله يغفر لمن يشرك به.

السيد العلامة الطباطبائي: من تبعني وعمل بشريعتي وسار بسيرتي، فإنه ملحق بي ومن أبنائي تنزيلاً أسألك أن تجنبني وإياه أن نعبد الأصنام، ومن عصاني بترك طريقتي كلها أو بعضها سواء كان من بنيّ أو غيرهم، فلا أُلحقه بنفسي ولا أسألك إجنابه وإبعاده، بل أُخلّي بينه وبين مغفرتك ورحمتك...

سيد قطب: ثم يتابع الدعاء.. فأما من تبع طريقي فلم يفتتن بها فهو مني، ينتسب إليَّ ويلتقي معي في الآصرة الكبرى، آصرة العقيدة:

﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى﴾،

وأما من عصاني منهم فأفوض أمره إليك:

﴿وَمَنْ عَصَانِى فإنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وفي هذا تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم فهو لايطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه، ولا يستعجل لهم العذاب بل لا يذكر العذاب، إنما يكلهم إلى غفران الله ورحمته. ويلقي على الجو ظلال المغفرة والرحمة وتحت هذا الظل يتوارى ظل المعصية فلا يكشف عنه إبراهيم الرحيم الحليم! ويمضي إبراهيم في دعائه يذكر إسكانه لبعض أبنائه بهذا الوادي المجدب المقفر المجاور للبيت المحرم، ويذكر الوظيفة التي اسكنهم في هذا القفر الجدب ليقوموا بها:

﴿رَبَّنا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ..﴾.

لماذا؟

﴿رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾.[1]

وفعلاً أكثر الذين جاؤوا بعد إبراهيم عليه السلام لم يبرّوا به، ولم يتبعوا الهدى والرشاد، وأبوا إلاّ اتباع أكبر أُكذوبة عرفتها البشرية في تاريخها؛ أضلَّت أجيالاً وأمماً كثيرة، وكلّفت السماء رسلاً وأنبياء وكتباً وشرائع من أجل قلعها من النفوس، واجتثاثها من الواقع البشري، وإعادة العقول إلى رشدها، والقلوب إلى بارئها سبحانه، إنَّها عبادة الأصنام التي ملأوا بها كل بقعة صغيرة أو كبيرة من ذلك الوادي المبارك من مكة وما حولها، وكأنهم قصدوا إلى تلويث كل ما طهره إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وعمدوا إلى الإساءة لكل مبادئهما وقيمهما، فكانوا ضمن دائرة ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾! وهذا ما نجده في أمثلة من الأمم والقرى، ولهم نظائر في

---

١. تفسير روح المعاني؛ التحرير والتنوير؛ الميزان في تفسير القرآن؛ وفي ظلال القرآن : الآية .

السابقين، جاءتهم النذر من الرسل والأنبياء والكتب والآيات، ولكن كان أكثرهم من المكذبين الضالين، ذكرها القرآن المجيد، نشير إلى بعض منها وبإيجاز:

بنو إسرائيل:

ما إن عبروا البحر، وأنجاهم الله من فرعون وجنده، ووقعت أعينهم على أصنام؛ حتى كادوا أن يدخلوا دائرة العصيان، وإن نجوا من هذه بفضل موسى عليه السلام وموقفه:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَآئِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۞ إِنَّ هَـٰؤُلاَءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ قَالَ أَغَيْرَ ٱللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾.[1]

فقد سقطوا في أخرى حين اتخذوا العجل إلهاً وعبدوه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَاتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.[2]

ثمَّ ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾.

لن نزال على عجل السامري مقيمين مواظبين نعبده، حريصين عليه لا نغادره؛ وقع هذا منهم حين افتتنوا به واستحسنوه، فأحبوه حبًّا عجيباً لايتوفر له وصفٌ كما التنزيل وصفه:

﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ...﴾.[3]

---

١. سورة الأعراف ١٣٨ ـ ١٤٠ .

٢. سورة البقرة : ٩٢ .

٣. سورة البقرة : ٩٣ .

قوم إلياس:

وهو ما نجده في موقف النبيِّ إلياس عليه السلام من قومه وعبادتهم، كما في الآيات التالية:

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ﴾.[1]

هكذا نطق النبيُّ إلياس عليه السلام في قومه مستنكراً عبادتهم لبعل، كما استنكر الذين من قبله من الأنبياء؛ بل ومن بعده عبادة أقوامهم وأممهم للأصنام، وتركهم عبادة الله أحسن الخالقين:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ۞ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَآئِكُمُ ٱلأَوَّلِينَ ۞ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

فهذا المقطع القرآني يحكي لنا قصة نبيٍّ من أنبياء الله تعالى، **﴿إِلْيَاسَ﴾**، وسواء أكان هو إدريس أو كان نبيًّا من أنبياء بني إسرائيل من ولد هارون بن عمران ابن عمّ اليسع، نكتفي بتسمية القرآن له.. قُدر له أن يرى قومه وهم يعبدون غير الله تعالى، فجاءت قصته لتجعلنا أمام ربٍّ آخر مزعوم؛ **﴿بَعْلاً﴾**.

فمن ياترى يكون هذا، وأين؟! أهو صنمٌ، أم اسم صنمٍ، أو هو ربٌّ؟

وقع كلام بينهم فيه بين أن يكون ربّاً في لغة أهل اليمن، أو هو صنم؛ كباقي الأصنام التي ورثوها من آبائهم:

ففي اللغة:

ابن منظور: من بَعَلَ... وبَعْلٌ والبَعْل جميعاً: صَنَم، سمي بذلك لعبادتهم إياه كأنه ربُّهم.

---

١. سورة الصافات : ١٢٥ .

وقوله عزَّوجلَّ: ﴿**أَتدعون بَعْلاً وتَذَرُون أَحسن الخالقين**﴾، قيل: معناه أَتدعون ربّاً، وقيل: هو صنم؛ يقال: أنا بَعْل هذا الشيء أَي ربُّه ومالكه، كأنه، قال: أَتدعون ربّاً سوى الله؟

وروي عن ابن عباس: أنّ ضالَّة أنشِدَت فجاء صاحبها فقال: أنا بَعْلُها، يريد ربها، فقال ابن عباس: هو من قوله أتدعون بعلاً أي رَبّاً.

وورد أن ابن عباس مَرَّ برجلين يختصمان في ناقة وأحدهما يقول: أنا والله بَعْلُها أي مالكها ورَبُّها.

وقولهم: مَنْ بَعْلُ هذه الناقة أي مَنْ رَبُّها وصاحبها؟

والبَعْلُ: اسم مَلِك.

والبَعْل: الصنم مَعْموماً به؛ عن الزجاجي، وقال كراع: هو صَنَم كان لقوم يونس، صلى الله على نبينا وعليه؛ وفي الصحاح: البَعْل صنم كان لقوم إلياس عليه السلام، وقال الأَزهري: قيل إنّ بَعْلاً كان صنماً من ذهب يعبدونه..

في الشام، في بلدة بعلبك، و بعلبك اسم مركب من "بعل" اسم صنم و"بك" أصله من بكَّ عُنُقَه أي: دقَّها، وتَباكَّ القومُ أي: ازدحموا، فإما أن يكون نُسب الصنم إلى "بك" وهو اسم رجل، أو جعلوه يبكُّ الأعناق،..

قال ياقوت الحموي:... وأما بعل في قوله تعالى: ﴿**أَتدعون بَعْلاً وتَذَرُون أَحسن الخالقين**﴾،[1] فهو صنم كان لقوم إلياس النبي عليه السلام وبه سميت بعلُبك، وهو معظم عند اليونانيين،... وقد ذكر أنيس فريحة في كتابه "أسماء المدن والقرى اللبنانية" أن اسم المدينة هو سامي، ومصدره كلمتي "بعل" وتعني "مالك" أو "سيد"

---

١. سورة الصافات : ١٢٥ .

أو "رب".[١]

الشيخ الطبرسي: ﴿**أَتدعون بَعْلاً**﴾، يعني صنماً لهم من ذهب كانوا يعبدونه.

والبعل بلغة أهل اليمن هو الرب والسيد، فالتقدير أتدعون رباً غير الله تعالى ﴿**وتَذَرُون أحسن الخالقين**﴾، أي تتركون عبادة أحسن الخالقين.

ابن عاشور: و (بَعْل) اسم صنم الكنعانيين وهو أعظم أصنامهم لأن كلمة بعل في لغتهم تدلّ على معنى الذكورة. ثم دلّت على معنى السيادة فلفظ البعل يطلق على الذكر، وهو عندهم رمز على الشمس ويقابله كلمة (تانيت) بمثنّاتين، أي الأنثى وكانت لهم صنمة تسمى عند الفينيقيين بقرطاجنة (تانيت) وهي عندهم رمز القمر وعند فينيقيي أرض فينيقية الوطن الأصلي للكنعانيين تسمى هذه الصَّنَمَة (العشتاروث). وقد أطلق على بعل في زمن موسى عليه السلام اسم «مُولك» أيضاً، وقد مثلوه بصورة إنسان له رأس عجل وله قرنان وعليه إكليل وهو جالس على كرسي مادّاً يديه كمن يتناول شيئاً وكانت صورته من نحاس وداخلها مجوف وقد وضعوها على قاعدة من بناء كالتنور فكانوا يوقدون النار في ذلك التنور حتى يحمى النحاس ويأتون بالقرابين فيضعونها على ذراعيه فتحترق بالحرارة فيحسبون لجهلهم الصنم تقبلها وأكَلَها من يديه، وكانوا يقربون له أطفالاً من أطفال ملوكهم وعظماء ملتهم، وقد عبده بنو إسرائيل غير مرة تبعاً للكنعانيين، والعمونيين، والمؤوبيين وكان لبَعل من السدنة في بلاد السامرة، أو مدينة صرفة أربعُمائة وخمسون سادناً. وتوجد صورة بعل في دار الآثار بقصر اللُّوفْر في باريس منقوشة على وجه حجارة صوروه بصورة إنسان على رأسه خوذة بها قرنان وبيده مقرعة. ولعلها صورته عند بعض الأمم التي عبدته ولا توجد له صورة في آثار قرطاجنة الفينيقية بتونس. وجيء في

---

١. معجم البلدان، لياقوت الحموي؛ ومعجم أسماء المدن والقرى اللبنانية، أنيس فريحة .

قوله: ﴿**وتَذَرُون أَحسن الخالقين**﴾، بذكر صفة الله دون اسمه العَلَم تعريضاً بتسفيه عقول الذين عبدوا بَعلاً بأنهم تركوا عبادة الرب المتصف بأحسن الصفات وأكملها وعبدوا صنماً ذاته وخش فكأنه قال: أتَدْعون صنماً بشعاً جمع عنصري الضعف وهما المخلوقية وقبح الصورة وتتركون من له صفة الخالقية والصفات الحسنى...[1]

ويقول الشيخ مكارم الشيرازي عن (بعل) هذا: إنّ قومه (إلياس) كانوا يعبدون صنماً إسمه (بعل) ويسجدون له، وإنّ هذا النّبي عليه السلام كان يدعوهم إلى ترك هذا العمل القبيح، والتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون العظيم وتوحيده وعبادته. ثمَّ يقول: جمع من المفسّرين ذهبوا إلى أنّ إلياس كان مبعوثاً إلى مدينة "بعلبك" إحدى مدن بلاد الشام، لأنّ (بعل) هو اسم ذلك الصنم و (بك) تعني مدينة، ومن تركيب هاتين الكلمتين نحصل على كلمة (بعلبك) وقيل: إنّ الصنم (بعل) كان مصنوعاً من الذهب وطوله حوالي (٢٠) ذراعاً وله أربعة أوجه، وخدمته كانوا (٤٠٠) شخصاً، ولكن البعض ذهبوا إلى أنّ (بعل) ليس إسماً لصنم معيّن، بل يطلق بصورة عامّة على الأصنام، فيما قال البعض الآخر: إنّها تعني (الربّ والمعبود). وقال (الراغب) في مفرداته: إنّ كلمة "بعل" تعني (الزوج) أمّا العرب فتطلقها على الأصنام التي تعبدها والتي بواسطتها يقربون إلى الله سبحانه وتعالى على حدّ زعمه... وعبارة ﴿**أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ**﴾ رغم أنّها تشير إلى أنّ الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون ولا يوجد خالق سواه، فهي تشير أيضاً حسب الظاهر إلى الأشياء المصنوعة، أي التي يصنعها الإنسان بعد أن يغيّر شكل المواد الطبيعية، ومن هنا سمّي بالخالق، رغم أنّه تعبير مجازي. على أيّة حال، فقد عمد إلياس إلى توبيخ قومه بشدّة، وقال لهم:

---

١. التحرير والتنوير : الآيات .

﴿**اللهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**﴾.[١] إذ أنّ الله مالككم ومربّيكم، وكلّ نعمة عندكم فهي منه، وأي مشكلة عندكم تتيسر بقدرته، فغيره، لا يعدّ مصدراً للخير والبركة، ولا يمكنه دفع الشرّ والبلاء عنكم.[٢]

جاهلية العرب ومشركيهم:

لم تتوقف عبادة الأصنام والأوثان، مع عظمة تلك الجهود التي بذلها كلّ من نوح وإبراهيم وفيما بعدهما من أنبياء ورسل وأئمة وعباد صالحين، حتى آلت إلى الجاهلية في الجزيرة العربية، التي كانت ممن عصت إبراهيم عليه السلام، واستبدلت منهجه التوحيدي بالشرك، حين رسخت عبادة الأصنام، وراحت تقتل التفكير البشري من جديد في هذا الوادي وما حوله، وتدعو إلى عبادة أوثان بلا تفكير وتدبر، حتى كثرت وكثر أتباعها، بل وتهالكوا على عبادتها... ولكثرتها قديماً وفي جاهلية العرب، ازدحمت بها الساحات والأزقة والدور، وكانت معشوقتهم التي لا يستطيعون فراقها، حتى امتزج بقلوبهم حبُّ عبادتها، وكانوا لها مخلصين، وعليها وعلى عبادتها محافظين، يدعمونها بجهودهم وأموالهم، ويبذلون من أجل إدامتها ما يملكون، يدرؤون عنها كلَّ ضرر، ويمنعون عنها كلَّ سوء، وبدل أن يلوذوا بها ـ كما يتوهمون ـ صارت وكأنها تلوذ بهم، وبدل أن تنفعهم نفعوها، وبدل أن تمنع الضرَّ عنهم منعوا الضرَّ عنها، وكانوا يتقرّبون إليها ويحملون إليها نذورهم، يجلبون إلى حيث معابدها كثيراً من محاصيل و زروع، وكانوا يتمسحون بها ويؤدون أمامها طقوس العبادة بكل ذلّة وخشوع، حتى أنّهم راحوا يؤدون لها مناسك

---

١. سورة الصافات : ١٢٦ .

٢. تفسير الأمثل : الآيات .

إبراهيم عليه السلام، التي تؤدى في البيت الحرام من طواف بالبيت إلى طواف حولها؛ كلٌّ حول صنمه ووثنه، فلعلّها ترضى عنهم وتمنحهم البركة والخير والعطاء، كما يعتقدون...

ومن أين لها هذا؟!

وهذا المقطع القرآني ـ ويُعدُّ واحداً من آيات كثيرة وقفت ضدَّ عبادة الأصنام من قبل مشركي العرب ـ يصف حالها:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۞ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴾.[1]

الشيخ الطبرسي: ثم أتمَّ سبحانه الحجة على المشركين بقوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾**، يعني الأصنام يريد تدعونهم آلهة.

﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، أي مخلوقة أمثالكم. وقيل: مملوكون أمثالكم. وقيل: أمثالكم في التسخير أي أنهم مسخَّرون مذلَّلُون لأمر الله. ولما كانت الأصنام غير ممتنعة مما يريد الله بها كانت في معنى العباد فإن التعبيد التذليل وطريق معبد موطؤ مسلوك ومنه قوله: **﴿وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾**،[2] أي ذلّلتهم واستخدمتهم ضروباً من الخدمة.

---

١. سورة الأعراف : ١٩١ ـ ١٩٥ .

٢. سورة الشعراء : ٢٢ .

﴿**فَادْعُوهُمْ**﴾، فادعوهم في مهماتكم ولكشف الأسواء عنكم: ﴿**فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ**﴾ هذه، لام الأمر على معنى التعجيز والتهجين كما قال: ﴿**هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾.[1]

قال ابن عباس: معناه فاعبدوهم هل يثيبونكم أو يجازونكم إن كنتم صادقين إن لكم عندها منفعة وثواباً أو شفاعة ونصرة.

ثمَّ يذكر الشيخ الطبرسي أنَّ الله سبحانه فضَّل بني آدم على ما تعبدون من أصنام، فقال: ﴿**أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا**﴾، أي لهؤلاء الأصنام أرجل يمشون بها في مصالحكم.

﴿**أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا**﴾، أي يأخذون بها في الدفع عنكم؛ ومعنى البطش التناول والأخذ بشدّة.

﴿**أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾، أي ليس لهم هذه الحواس ولكم هذه الحواس، فأنتم أفضل منهم، فلو دعوتم وعبدتم من له الحياة ومنافعها للزمكم الذم واللوم بذلك؛ لأنها مخلوقة مربوبة، فكيف تعبدون من أنتم أفضل منه؟!

ثم زاد سبحانه في تهجينهم ـ والكلام ما زال للشيخ الطبرسي ـ فقال: ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد ﴿**ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ**﴾، أي هذه الأوثان التي تزعمون أنها آلهة، وتشركونها في أموالكم، وتجعلون لها حظاً من المواشي وغيرها، وتوجهون عبادتكم إليها إشراكاً بالله لها ﴿**ثُمَّ كِيدُونِ**﴾، بأجمعكم ﴿ **فَلاَ تُنظِرُونِ**﴾، أي لاتؤخِّروني، ومعناه أنَّ معبودي ينصرني، ويدفع كيد الكائدين عني، ومعبودكم لايقدر على نصركم، فإن قدرتم على ضرّ، فاجتمعوا أنتم مع أصنامكم، وتظاهروا على كيدي، ولا تمهلوني في

---

١. سورة النمل : ٦٤ .

الكيد والإضرار، فإنَّ معبودي يدفع كيدكم عني.[١]

فهي آلهةٌ مَصنوعةٌ من صخر ومَنحوتةٌ من حجارة، وأحياناً من تمر إذا جاعوا أكلوه كما في وثنية العرب وفي جاهليتهم؟!

وكمثال على ضآلة تفكيرهم، وسخافة اعتقادهم وولائهم لها، وإن كان هذا مبلغ علمهم؛ فهذا عمرو بن الجموح، وإن كان سيداً وشريفاً في قومه؛ لكنه شيءٌ آخر في قصته المعروفة مع صنمه (مناة) حينما راح من قومه يعدون على صنمه، يقول الخبر:

فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام بها، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك، منهم عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة وكان ابنه معاذ بن عمرو شهد العقبة، وبايع رسول الله صلى الله عليه وآله بها، وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بني سلمة، وشريفاً من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب، يقال له: مناة؛ كما كانت الأشراف يصنعون، تتخذه إلها تعظِّمه وتُطهِّره، فلما أسلم فتيان بني سلمة:

مُعاذ بن جبل، وابنه مُعاذ بن عمرو (بن الجموح) في فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، كانوا يُدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه في بعض حُفر بني سلمة، وفيها عِذر (فضلات) الناس، مُنكّساً على رأسه، فإذا أصبح عمرو، قال: ويلكم! من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟ ثم يغدو يلتمسه، حتى إذا وجده غَسله وطهَّره وطيَّبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأُخزينَّه. فإذا أمسى ونام عمرو، عدوا عليه، ففعلوا به مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيَغسله ويطهَّره: ويطيَّبه. ثم يعدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به مثل ذلك.

---

١. انظر تفسير مجمع البيان : الآيات. بتلخيص؛ وانظر تفسير الطبري وغيرهما .

فلما أكثروا عليه، استخرجه من حيث ألقوه يوماً، فغسله وطهَّره وطيَّبه، ثم جاء بسيفه فعلَّقه عليه، ثم قال:

إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خيرٌ فامتنع، فهذا السيف معك.

فلما أمسى ونام عمرو، عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة، فيها عِذر من عِذر الناس.

ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكَّساً مقروناً بكلب ميت، فلما رآه وأبصر شأنه، وكلَّمه من أسلم من (رجال) قومه، فأسلم برحمة الله، وحسن إسلامه.

فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف، وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره، ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

والله لو كنتَ إلهاً لم تكن أنت وكلبٌ وسط بئرٍ في قرن

أفٍّ لملقاك إلهاً مُستدن الآن فتَّشناك عن سوء الغَبن

الحمد لله العلي ذي المنن الواهب الرزاق ديَّان الدّيَن

هو الذي أنقذني من قبل أن أكونَ في ظلمة قبر مُرتهن

بأحمدَ المهدي النبيّ المُرتهن.[1]

وأخيراً في مكة وقبائلها:

فذاك صنم عمرو بن الجموح، يُدعى مناة، وقد اتخذه من نفيس الخشب،

---

١. السيرة النبوية لابن هشام ٢ : ٤٥٢-٤٥٣، والهامش .

وأرقى أنواعه، جئنا به مثلاً، وإلاّ هناك أمثال كثيرة أشخاصاً وأصناماً امتلأت بها مكة وما حولها! حتى جعلني أسأل:

مَن أوّل مَن استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!

ذلك الخير العظيم، والصراط المستقيم، والهدى والرشاد، الذي ما إن انتهى نبيّا الله إبراهيم وإسماعيل من بذرٍ طيبٍ في ذلك الوادي، لتشييد حياة إيمانية جديدة، وإرسائها في تلك البقاع، حتى رفعا ذلك الدعاء المبارك، والدعاء لم يفارقهما، أن يجعله بلداً آمناً طاهراً، ينعم بخيرات كثيرة، وأن يجنبهم عبادة الأصنام وما على شاكلتها، ثم بدأ الناس في التوافد عليه والاستقرار به، فكانت جرهم وكانت خزّاعة من أولى القبائل التي سكنته، وثالثتهم قريش التي انتزعت إمارة البيت ومكة من خُزاعة، تحت إمرة قصي بن كلاب الجدّ الرابع لرسول الله صلى الله عليه وآله... وإذا بهم يُبدلون نعمة الله كفراً، حين أبوا إلاّ أن يستمعوا وينصاعوا لنداء الشيطان: ﴿**وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ**﴾،[1] فإنَّ للشيطان تسلّطاً عليهم وعلى أمثالهم، حتى صار يجمل أُمنيّاتهم، وهم سمّاعون له، راغبون فيه؛ ملبون دعوته.. وقد وجد فيهم ضالته، حتى يكفروا بهذه النعم، ويستبدلوها شركاً فضلالاً... حين: ﴿**...جَعَلُوا لِلّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ**﴾، أقراناً يضفون عليهم صفاته تعالى، ويعبدونهم كعبادته..

وهذا ما نجده في مرحلة الجاهلية المتمثلة باتخاذهم أصناماً وتماثيل ينحتونها بأيديهم، ويطيعون بها شيطانهم الذي سوّل لهم أعمالهم، يتوسلون إليها، يتقربون إليها، يشبعون منها هواهم ورغبتهم، ويعبدونها من دون الله تعالى، دليل جهلهم، وكذا تجهيلهم من قبل المتنفذين المستفيدين، وهكذا هو منهج المستكبرين طوال العصور، حين ينطلق كبراؤهم وقادتهم، الذين كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة

١. سورة النساء : ١١٩ .

الأوثان، وأشربته قلوبهم؛ أن يثبت الناس على أصنامهم، ويستمروا في عبادتها.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾[١].

اثبتوا على عبادة آلهتكم واصبروا على دينكم وتحمّلوا المشاق لأجله، إن هذا الأمر يراد بنا من زوال نعمة أو نزول شدة؛ لأنهم كانوا يعتقدون في الأصنام أنهم لو تركوا عبادتها أصابهم القحط والشدة، أو يريد صاحب هذه الدعوة أن يحظى بالشرف عليكم، والاستعلاء، وأن يعلو شأنه عليكم حين تكونون له أتباعاً...

إنَّ تجهيل الآخر منهج سيئ كان وما زال وسيبقى حاكماً من قبل المتسلّطين على الناس وفي عدد من المؤسسات... لقد دخلت عبادة الأصنام والأوثان في هذا الوادي، وانتشرت بشكل لم ينجو منها حتى البيت الحرام نفسه، وبعد أن تكاثر العرب وانتشروا فى شبه الجزيرة العربية وانقسموا الى قبائل قاموا بعمل تماثيل كثيرة، وكانوا يجعلون حولها دائرة، يحرم لمسها أو يدخلها أحد، وراحوا يطوفون حولها مثل طوافهم حول الكعبة.. ولذا كانوا يقولون في جاهليتهم إذا حجوا لبيك لا شريك لك، إلاّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك...!

ولتقربهم إلى الله سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللهِ زُلْفَى...﴾[٢].

تجعل لهم منزلةً عند الله تعالى، تشفع لهم عند الله، تنفعهم، تجلب لهم الرزق، تنصرهم على أعدائهم، تدفع الضرَّ عنهم، حقًّا إنما يضلُّ الإنسان بهواه، ويهلك بمناه.. فتأتيهم الآية تحمل الحقيقة التي غفلوا عنها، ولتبيّن ضآلة عقولهم، وفساد اعتقادهم،

---

١. سورة ص : ٦ .

٢. سورة الزمر : ٣ .

وابتعادهم عن الرشد، وبالتالي ضلالهم:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ ٱللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي ٱلأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.[1]

إنّ هذه الآلهة التي لا تملك لنفسها شيئاً؛ فضلاً عن أن تقدم لغيرها منفعة أوتدفع عنه مضرة.

ما هي؟! وأين وضعوها؟!

لها صلة

١. سورة يونس : ١٨ .